مصـر في القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادي
كما رآها بيلوتي الكريتـى

د. محاسن محمد الوقاد

جامعة عين شمس، مصر

بيلوتى الكريتى: حياته وأهميته التاريخية:

يعتبر إيمانويل بيلوتي الكريتي Piloti de Crète من أبرز الرحالة الغربيين الذين زاروا مصر في عصر سلاطين المماليك في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي ومكث بها مدة طويلة. ولد إيمانويل بيلوتي الكريتي في عام ٧٧٣ هـ / ١٣٧١م في جزيرة كريت، وهو من أسرة تنتمى إلى أعيان البندقية استوطنت في جزيرة كريت، ومن ثم فهو كريتي (يوناني) من أصل بندقي. وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره بدأ السفر من أجل بعض الأعمال، ويبدو أنه جاء إلى مصر مباشرة فيقول: "**كل شئ بالعلم**"ويذكر أيضاً : "**حصلت عليه برغبة وممارسة شخصية من البلاد المذكورة منذ أن بلغت الخامسة والعشرين حتى سن السبعين عاماً، وأشار أيضاً بقوله: "قد سمعت دائماً وعشت في الشرق بلد الوثنيين وكذلك الغرب بلد المسيحيين وقوتهم**".

إن السنين الأربعين أو الخمس والأربعين من مشوار حياة بيلوتي الكريتي العملية والتجارية توافق حكم السلاطين الخمسة الأوائل لدولة المماليك الجراكسة ٧٨٤هـ – ٩٢٣هـ / ١٣٨٢ – ١٥١٧م بمعنى في نهاية حكم السلطان برقوق (٧٨٤ – ٨٠٢هـ / ١٣٨٢ – ١٣٩٩م) والى حكم السلطان الناصر فرج ٨٠١هـ/١٣٩٩م، والمؤيد شيخ المحمودى ٨١٥ – ٨٢٥هـ / ١٤١٢ – ١٤٢١م، والسلطان الأشرف برسباي ٨٢٦ – ٨٤٢هـ / ١٤٢٢ – ١٤٣٨م[١].

إن أول ما جذب انتباهه في القاهرة هو القلعة بما فيها من مماليك، وقد شاهد بها حوالي مائتي شاب من الفرنسيين والإيطاليين الذين وصلوا حديثاً أسرى[٢] من معركة

---

(١) P. H. Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle* (Le Caire 1950), p. 5.

(٢) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle,* p. 1.

نيقوبوليس[٣]، أرسلهم السلطان العثماني بايزيد بن مراد خان[٤] هدية إلى السلطان المملوكي الظاهر برقوق أثناء توليه السلطنة للمرة الثانية (٧٩٢ – ٨٠١هـ / ١٣٩٠ – ١٣٩٩م) بعد انتصاره في معركة نيقوبوليس عام ٧٩٨هـ/١٣٩٦م. وقد آلم بيلوتي تحويلهم إلى الإسلام وسوء أحوالهم وما تلا ذلك من سقوط مملكة قبرص عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م، وأسر ملكها جانوس وإحضاره أسيراً إلى القاهرة في سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م مع بقية الأسرى حيث زفوا في شوارعها في موكب حافل ثم أطلق سراحه مقابل فدية مقدارها مائتا ألف دينار على أن يصبح تابعاً للدولة المملوكية وذلك في عهد السلطان الأشرف برسباي (٨٢٦–٨٤٢هـ / ١٤٢٢–١٤٣٨م) ولهذا لم يستطع بيلوتي الصمت عن هذا الوضع، فأرسل إلى البابا يرجوه ويتوسل إليه أن يخطط لحملة على الشرق من أجل صالح المسيحيين[٥] .

كان بيلوتي الكريتي لا يزال في مصر عند وفاة السلطان الأشرف برسباي في عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، لأنه نقل ما سمعه من تعليقات بصدد هذه الوفاة. من ناحية أخرى أشار بيلوتي الكريتي إلى عدم وجود القنصل القطلانى في مصر منذ عام ٨١٧هـ/١٤١٤م وذلك دليل على أنه غادر البلد قبل استئناف العلاقات التجارية المصرية–القطلانية في عهد السلطان جقمق (٨٤٢–٨٥٧هـ/١٤٣٨–١٤٥٣م).

وأشار بيلوتي أنه عاش في مصر اثنين وعشرين عاما ولكنها لم تكن متصلة، فقد تخللها غياب وأسفار في الشرق . إذ كان يمتلك وكالة تجارية في الإسكندرية والقاهرة، ولكن

---

[٣] وقعت هذه المعركة في مدينة نيقوبوليس شمال البلقان حيث تجمعت جيوش الدول الأوروبية من فرنسا وانجلترا وألمانيا واسكتلندا وسويسرا والمجر وغيرهم لتكوين حملة عسكرية موجهة ضد الدولة العثمانية بدعوة من سيسجموند ملك المجر والبابا بونيفاس التاسع وحاصروا المدينة وانتصروا على القوات العثمانية في بادئ الأمر ثم ما لبثت أن ظهر بايزيد وحقق نصراً عظيماً عليهم وخرج العثمانيون من المعركة بغنائم كثيرة وأسر بعض ملوك وقادة الجيوش الأوروبية وهرب ملك المجر واتخذ بايزيد لقب "سلطان الروم". سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جزءان (القاهرة ١٩٦٣م)، جـ٢، ص ١٢٥٠ – ١٢٥٢؛ محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤ – ١٩١٤م (القاهرة ١٩٧٧م)، ص ٣٦ – ٤٠.

[٤] هو بايزيد خان بن مراد بن أورخان بن عثمان الغازى سلطان الروم، ولد عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، وجلس على العرش عام ٧٩٢هـ/١٣٦٠م، وفتح كثيراً من بلاد أوروبا وخرج على تيمورلنك، وانتصر عليه ولكن جيش تيمورلنك استطاع الالتفاف حوله وألقوا عليه بساطاً وامسكوه وحبسوه فمات كمداً في الأسر عام٨٠٦هـ/١٤٠٣م. انظر الشوكانى، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق خليل المنصور، جزءان (بيروت ١٩٩٨م)، جـ١، ص ١٠٩؛ إبراهيم حليم، التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، تحقيق نجوى عباس (القاهرة ٢٠٠٤)، ص ٧١–٧٥ .

[٥] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 2.

أعماله كانت دائماً تقوده إلى المدن التجارية الأخرى بشرق البحر المتوسط، فقام بزيارة مدينة دمشق ثلاث مرات قبل وبعد قيام تيمورلنك بتدميرها عام ٨٠٣هـ/١٤٠١م إلى جانب مدينة البندقية التي يعرفها جيداً [٦] .

كان بيلوتي تاجراً مرموقاً بندقياً ثرياً يتنقل بين الإسكندرية والقاهرة عن طريق منطقة الغربية التي قام بوصفها؛ من ناحية أخرى أشار بيلوتي أنه كان يستورد منتجات البندقية إلى الإسكندرية مثل القطيفة الحرير، والشراشف الموشاه بالذهب، والعنبر [٧]، والزعفران، كذلك النبيذ الذى كانت تنتجه جزيرة كريت[٨].

امتلك بيلوتي داخل منطقة الجمرك بمدينة الإسكندرية حانوتا تجاريا، كما عمل مديرا لفندق خارج منطقة الجمرك لوقت قصير، وعادة ما كان يستفيد من حظوته في الدوائر الراقية، لدرجة أنه فتح ثغرة في مبنى الجمارك المجاور لمخزنه الخاص، بحيث كان يخرج منه بضائعه لتجنب دفع الضرائب[٩].

كان بيلوتى يحظى بشعبية بين رفاقه التجار من جميع المشارب والأعراق، بفضل شخصيته الودودة الجذابة، الذين أطلقوا عليه اسم "مانولى" ويعرفونه من صوته؛ كما كان على علاقة ودية أيضاً مع المسلمين، فنجده يتحدث معهم بكل حرية في أدق الموضوعات مثل الموضوعات التي تتعلق بدينهم، كما تعامل مع اليونانيين بكل ود[١٠].

وفيما يتعلق بعلاقته بالسلطان فرج بن برقوق ٨٠١هـ/١٣٩٩م، فقد كان مقرباً منه، وكسب صداقته؛ ووقع عليه اختيار مجلس التجار البنادقة بالإسكندرية وذلك في عام

---

(٦) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 2-3.

(٧) يعتبر العنبر من الأحجار النفيسة، وينبع من صخور وعيون الأرض ويجمع في قرار البحر، فإذا تكاثف قطعه الأمواج فترمى به الرياح إلى السواحل، ولا يستطيع أحد أن يقترب منه لشدة حرارته وفورانه فإذا أقام أياماً وتعرض للهواء تجمد، فيجمعه أهل السواحل. وللعنبر ألوان مختلفة منها الأبيض، والأزرق، والرمادى والأحمر، وأفضل أنواع العنبر وأجوده ما جمع فيه قوة الرائحة وذكاء بعبير، وللعنبر أنواع كثيرة وفى العصر المملوكي استعمل النساء نوعان من العنبر يقال له الند. القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة ١٩٦٣م)، جـ٢، ص ٩٧-١٢٥ .

(٨) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 2.

(٩) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 1.

آن وولف، كم تبعد القاهرة؟ رحلات ومغامرات في مصر وما وراءها (١٣٠٠ – ١٦٤٠م) ترجمة قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة ٢٠٠٦م)، ص ١٣٧.

(١٠) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 3.

آن وولف، كم تبعد القاهرة ؟، ص ١٣٧.

٨١١هـ/١٤٠٨م من أجل القيام بمهمة دقيقة لدى دوق ناكسوس Naxos المدعو "جاكوبو كريسبو" Jacopo Crrispo، الأمر الذى تطلب منه التفاوض لحساب السلطان الناصر فرج حول افتداء مائة وخمسين أسيراً مسلماً باعهم أحد القراصنة القطلان المشهورين آنذاك وهو "بيير دو لا راندا Pierre de la Randa " الذي اتجه بغنيمته إلى جزيرة ناكسوس(١١). وقد وافق بيلوتى على قبول هذه المهمة من أجل صالح طائفة البندقية المهددة، لأن السلطان كان يعتبر أن دوق هذا الأرخبيل خاضع للبندقية. وقد نجح بيلوتي فيمهمته نجاحاً باهراً ولم يغفل عند عودته إلى مصر أن يجعل من هذه المهمة خدمة دبلوماسية كبيرة لتعزيز مكانة ومكانة البندقية. وترتب على هذه المهمة كسب ثقة السلطان المملوكي والود والنية الحسنة تجاه البندقية.

ورغم المكانة البارزة التي تمتع بها بيلوتي الكريتي كمواطن بندقى يعيش في مصر، فإنه يعترف بارتباطه الوثيق بوطنه الأم مدينة البندقية، ويتمنى أن تقوم البندقية بحملة صليبية على الإسكندرية من أجل احتلالها فيذكر: "**أن البندقية هى الوحيدة التي لديها الوسائل اللازمة لتحقيق ذلك، ولابد أن تصبح البندقية سيدة هذا المكان الذي سيجعل الاحتلال المسيحى منه مكاناً مزدهراً حتى يصبح من المؤكد السوق الأول للتبادل التجارى في العالم**"(١٢).

وفيما يتعلق بالاتجاهات الدينية عند بيلوتى الكريتى، فقد كان كاثوليكياً ويكن للبابا كل تقدير واحترام، وإذا كان قد رأى انتقادات لاذعة موجهة إلى البلاط البابوى فهو لا يحمل البابا الأوضاع المتردية فى الإدارة الكنسية(١٣).

ولم يحدثنا عن علاقته بالسلطان برقوق، مع إنه كان موجوداً في القاهرة على عهد هذا السلطان، ولكنه كان يحترمه ويتحدث عنه بكل ود في كل مرة يأتى فيها ذكر السلطان. وفى عهد السطان الناصر فرج ازدهرت حياة بيلوتي الكريتى، وحظى بمكانة كبيرة لدى السلطان، وقد استقبله مرتين في مجلسه مرة في عام ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م والأخرى عام ٨١١هـ / ١٤٠٨م كما سبق القول. ولم يمدنا بيلوتي الكريتي بأية معلومات عن كيفية عزل السلطان فرج وتعيين أخيه المنصور عبد العزيز الذي كان يبلغ من العمر عشر سنوات، وحكم لمدة شهرين ثم تم نفيه بعد ذلك، وعاد الناصر فرج مرة أخرى إلى منصب السلطنة. من ناحية أخرى أشار بيلوتي إلى ثورة

---

(١١) إحدى جزر بحر إيجة، تحولت إلي دوقية بندقية عقب سقوط القسطنطينية ١٢٠٤م. Rosser, J. H., *Historical Dictionary of Byzantium* (New York 2008), pp. 313, 351.

(١٢) Dopp, P.H., *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 3.

(١٣) Dopp, P.H., *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 5.

الأمراء نوروز وشيخ والتى ترتب عليها قتل السلطان فرج في عام ٨١٥هـ / ١٤١٢م[١٤] بالقرب من دمشق وظلت جثته ملقاة بالمزابل خارج المدينة لمدة ثلاثة أيام قبل أن يدفن بها مع أنه شيد بالقرافة الشرقية بالقاهرة مدفناً [١٥]. وعندما تولى المؤيد شيخ المحمودى لقب بالمؤيد في عام ٨١٥هـ/١٤١٢م، وكان بيلوتي إبان ذلك في مصر، لأنه أشار إلى ظروف توليه العرش، ثم عوائق علاقة مصر التجارية مع القطلان، وعند وفاة السلطان المؤيد شيخ عام ٨٢٥هـ/١٤٢١م كان بيلوتي غائباً عن مصر، ولذلك لم يمدنا بأية معلومات عن أسماء السلاطين الثلاثة المظفر أحمد، الأمير ططر،محمد بن ططر والذين تسلطنوا سريعاً في عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م في وسط جو مشحون بالمؤامرات والدسائس من قبيل الأمراء والبلاط السلطانى[١٦] .

عاد بيلوتي الكريتي إلى مصر أثناء حكم السلطان الأشرف برسباي (٨٢٦-٨٤٢هـ / ١٤٢٢ – ١٤٣٨م)، الذى امتاز عهده بالاستقرار وقلة الاضطرابات على الرغم مما قاساه الناس في ذلك العهد بسبب سوء الأحوال الاقتصادية وسياسة برسباي الاحتكارية . فقد أشار بيلوتي إلى أن السلطان برسباي استطاع إنزال الهزيمة بجانوس ملك قبرص وأحضره أسيراً إلى القاهرة في عام ٨٢٩هـ/١٤٢٦م مع بقية الأسرى[١٧] كما سبق وأن ذكرنا.

تحدث بيلوتي الكريتي عن تغير الظروف تغيراً كبيراً في عهد هذا السلطان[١٨]، فقد قام ببعض الإجراءات الاقتصادية بهدف زيادة عائدات الدولة المملوكية، وعمد إلى احتكار بعض السلع لنفسه مثل السكر والبهار وخشب الوقود واللحم والحبوب لدرجة أن بيع الماشية لم يعد مباحاً مما عرض التجار والناس للكثير من الشدائد والمتاعب، كما قام بتحويل تجارة الهند من

---

(١٤) Dopp, P.H., *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 6.

(١٥) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٨٣م)، جـ١، ق٢، ص ٨٢٠ – ٨٢١ . شيد السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن السلطان الظاهر برقوق خانقاه تقع بشارع الأشرف بجبانة المماليك، شرق مدينة القاهرة بناء على وصية أبيه . لمزيد من التفاصيل انظر : أحمد عبد الرازق، تاريخ وآثار مصر الإسلامية فى العصرين الأيوبى والمملوكى (القاهرة ٢٠٠٧م)، ص ٢٢١ وما بعدها .

(١٦) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 6.

(١٧) ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشى (القاهرة ١٩٩٤م)، جـ٣، ص ٣٦٦، ٣٩٨، ٤٠٦ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٧٠م)، جـ١٤، ص ٢٩٢ وما بعدها .

(١٨) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 6 - 7.

عدن إلى جدة التي كانت ضمن أملاك الدولة المملوكية الأمر الذي ساعده على جباية مقادير طائلة من الأموال[١٩].

ويذكر بيلوتي الكريتي السلطان برسباي بقوله: "بأنه جائر" احتل مكة وجدة في عام ٨٢٨هـ/١٤٢٤م، وقام بتحويل تجار الهند من عدن إلى جدة التي كانت ضمن أملاك الدولة المملوكية الأمر الذي ساعده على جباية مقادير طائلة من الأموال، وغزا قبرص وهدد بضمها، وارجع بيلوتي مرض ووفاة السلطان برسباي إلى عقاب من الله تعالى بسبب تدميره كنيسة بالقرب من بحيرة البرلس في عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م. وعند وفاة برسباى، كان بيلوتيبناهز السبعين عاماً ، وقد توقفت حياته العملية، ولكن نشاطه الطويل، يعطيه الحق في أن يروى ما عاشه من زمن طويل في مصر ،وأنه اشتغل زمناً طويلاً في القاهرة وفى الأماكن الأخرى للوثنيين[٢٠].

عاش بيلوتي الكريتي في مصر فترة كبيرة وسماها "هذه البلاد السامية جداً " كما أسماها "بلاد الله الأولى" وقرر أنه "لا يوجد أغنى منها في الدنيا" وأن تجارة الشرق والغرب لا يمكن أن تستغنى عنها، كذلك تمنى أن يكتب الله له أن يموت فيها ويدفن في القاهرة في كنيسة السيدة القديسة مريم (حاليا سان – سرجيوس بمصر القديمة). ولكن لم يتحقق حلم بيلوتي الكريتي وتوفي بفلورنسا على الأرجح، فقد غادر مصر رغماً عنه واعتكف في ايطاليا ربما في فلورنسا وأبحر في أوقات فراغه في شيخوخته. أما عن مؤلفه فقد ظل منذ عام ٨٢٣هـ٤٢٠م معلقاً ، واستأنف العمل فيه عام ٨٤٥هـ/١٤٤١م[٢١].

كتابه المسمى "مصر في مستهل القرن الخامس عشر" وقيمته التاريخية:

هذا العمل الذي كتبه بيلوتي الكريتي كان موجها إلى البابا يوجين الرابع عام ٨٣١هـ/١٤٢٧موترجع أهميته إلى تناوله وصف مصر سياسياً وعسكرياً واجتماعياً ، كما أنه احتوى على معلومات اقتصادية غاية في الأهمية للدارسين والباحثين في التاريخ الاقتصادى إبان

---

[١٩] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٨٩ ؛
Ahmad Darrag, *L'Egypte sous le règne de BarsBay 825-841/1422-1438* (Damas, 1961), pp. 75 – 58.

[٢٠] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 7.

[٢١] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 15 - 16.
لمزيد من التفاصيل عن هذه الكنيسة انظر : محاسن محمد الوقاد، المزارات والمقدسات الدينية فى مصر فى ضوء كتابات الرحالة والحجاج الأوروبيين خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، مجلة وقائع تاريخية، العدد التاسع، يناير ٢٠٠٨م .

تلك الفترة[٢٢]. لقد حقق بيلوتي مكانة كبيرة من الدرجة الأولى بين الذين يعملون في الدعاية للحروب الصليبية في هذا الوقت والهدف الأساسى من عمل بيلوتي الكريتي هو تشجيع المجئ بحملة صليبية على مدينة الاسكندرية، كذلك أشار في كتابه هذا إلى وصف الإسكندرية للبابا ولحكام الغرب، فيقول: "**لابد من احتلال مدينة الإسكندرية من أجل ما ستجنيه المسيحية من فوائد جمة مادية ومعنوية**"[٢٣] .

وقد قسم بيلوتي الكريتي كتابه "مصر في مستهل القرن الخامس عشر" إلى ثلاثة أقسام مسبوقة بمقدمة:

المقدمة: تناول فيها الهدف من الكتاب وأنه موجه إلى البابا والأمراء المسيحيين لصالح القيام بحملة صليبية. ولكن هذه الحملة لا يمكن تحقيقها إلا عن طريق تهدئة المشاحنات والمنازعات الدينية والسياسية التي أضعفت وفرقت المسيحيين والى سلطة البابا الخيرة بأن يعيد الوفاق من أجل الصالح العام ألا وهو تحرير بيت المقدس. وقد شرح بيلوتي الشروط والصفات التي يجب أن تتوافر في الأمراء الذين يريدون أن يشاركوا في هذه الحرب الصليبية وكذلك قائد الحملة الصليبية، ويشير كذلك إلى ضرورة توجيه حملة ضد مصر لا ضد فلسطين، فالطريق الوحيد لإضعاف سيطرة السلطان المملوكي وتدمير قوى المسلمين لا تتم إلا بالاستيلاء على القاهرة. كما وصف الطرق المؤدية إلى القاهرة والإسكندريةوصفاً دقيقاً كأنه مرشد للقوات الأوربية[٢٤]. يجب أن تكون الحرب الصليبية موجهة دفعة واحدة ضد النقاط الاستراتيجية الحية للعالم الإسلامى[٢٥].

---

[٢٢] استثمر بعض المؤرخين مصدر المعلومات الثرى الذي أسسه كتاب بيلوتي الكريتي على سبيل المثال الكونت هنرى دى كاسترى في كتابه الذي جمع فيه مقالات تحت عنوان "الإسلام دراسات وانطباعات"، (باريس ١٩٨٦م)، كذلك م. ريمون وايل الذي أتيحت له الفرصة بأن يتحدث عن بيلوتي الكريتي في بحث مقدم إلى كلية الآداب في باريس بعنوان "شبه جزيرة سيناء" دراسة جغرافيا وتاريخ (باريس ١٩٠٨)، ص ٩٢؛ ولا يفوتنا في هذا الصدد أيضاً أن نذكر المؤرخ المصري عزيز سوريال عطية في كتابه الممتاز عن الحروب الصليبية في نهاية العصور الوسطى. لمزيد من التفاصيل انظر:

Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 13 - 14.

[٢٣] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 14 - 15.

[٢٤] نقولا زيادة، رواد الشرق العربى، مجلة المقتطف (القاهرة ١٩٤٣م)، ص ١١٦-١١٧؛ أحمد دراج، تاريخ العلاقات بين المماليك والفرنج في القرن ١٥م (القاهرة ١٩٩٠)، ص ٢٠٤ .

[٢٥] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 16.

- **ويهمنا من هذا الكتاب الجزء الأول** وعنوانه وصف مصر: قبل أن يتناول المؤلف خطته للحملة،يكتب وصفاً عاماً لمصر يتناول فيه حالتها الطبيعية والاجتماعية والدينية وكذلك يتحدث عن قدرتها التجارية والسياسية وقد بدأ بتصوير موجز لأهمية القاهرة كنتيجة لموقعها الجغرافى ومقدرتها وخبراتها والتى تتمثل في خصوبة الأرض والتجارة. وتحدث عن مناخ القاهرة الجميل حيث يقول: "**أجمل هواء في العالم، والذى هو أفيد لحياة الإنسان** " وأكثر نسبة مواليد (بالنسبة إلى السكان) وطبيعة الأهالى المسالمة، ثم عرض بعد ذلك في سرعة الطبقات المختلفة للشعب المصري[٢٦].

ثم يتحدث بيلوتي الكريتي بعد ذلك عن المصادر الطبيعية للحياة في مصر ويوضح الدور الرئيس للنيل وأهمية مدينة الإسكندرية في حياة مصر،كما يعرض عرضاً سريعاً للوسائل الرئيسية التي تمون مصر. وينهى المؤلف الجزء الأول برسم صورة عن الأهمية التجارية والسياسية لمصر، وامتلاكها لكل بلاد الشام والجزيرة العربية وتجارتها الهائلة مع العرب والشرق على السواء.

والجزء الثانى يحمل عنوان خطاب شامل لغزو الاسكندرية: وفيه يوجه بيلوتي الكريتي نداءً جديداً إلى البابا والامبراطور والأمراء المسيحيين ويشير بأن الوسيلة الوحيدة لغزو واسترداد الأراضى المقدسة هى الاستيلاء على مصر، قائدة العالم العربي الإسلامي والمقر الرئيس لقوته، ولن يتسنى لنا الاستيلاء على مصر ذاتها، إلا إذا تم الاستيلاء على الاسكندرية، لأنها ذات موقع يتحكم في شريان الحياة الاقتصادية كلها بالنسبة لمصر[٢٧].

وضع بيلوتي الكريتي ثلاث وسائل وشروط لا غنى عنهم لنجاح الحملة: التسلح بأسطول، سرية كافة الاستعدادات، وحدة القيادة قبل وبعد الغزو. وسوف يوضح بيلوتي فيما بعد أنه يأمل أن يرى هذه القيادة في أيدى جمهورية البندقية؛ من ناحية أخرى توقع بيلوتي النتائج الموفقة للغزو بالنسبة إلى تجارة الإسكندرية ومن أجل حماية الدول المسيحية بالشرق التي وضح موقفها المزعزع خاصة في آسيا الصغرى وقبرص. ولجأ المؤلف إلى وسائل لمساعدة تطوير الإسكندرية بعد الغزو فيقول: "**وسوف يمكننا أن نحدد بما فيه فائدة، لصالح سوق الإسكندرية الذي تعرض للخطر، الذي أعلنته قديماً البابوية ضد التجارة مع المسلمين، أن أمن ميناء الإسكندرية في عهد الحكومة المسيحية سوف يجذب إليها تجار الحبشة، وكذلك**

---

(٢٦) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 16.

(٢٧) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 17.

مسلمى الجزر التي تنتج التوابل. أما الإجراءات المطلوبة فسوف تستوجب رقابة بحرية صارمة ودوريات تكون قاعدتها الإسكندرية تتجول أمام سواحل سوريا وتركيا، تمنع السفن المسيحية من التوجه إليها. وبهذه الطريقة، فإن كل تجارة هذه البلاد وخاصة تجارة دمشق سوف تتجه إلى الاسكندرية، وفى هذه الحالة سنجد البنادقة هم الأجدر على تأمين كل العمليات البحرية"[٢٨].

ومن ناحية أخرى يوضح المؤلف أهمية وتنوع المصالح المعروضة،واضعاً جدولاً مفصلاً لتجارة الإسكندرية مع عشرين بلد أجنبى، وامتلاك الإسكندرية سوف يسفر عنه نتائج موفقة من أجل انتشار الدين المسيحى. ومن ثم يوجه نداءً جديداً إلى البابا عن المساندة المالية التي ينتظرها المؤلف من الكرسى البابوي، ثم ينتقد بيلوتي بشدة الإدارة الدنيوية للكنيسة، ويقترح أن تقوم بالإصلاح مؤسسة المستشارين الأجانب بروما، ثم يتابع خطة حملة على الإسكندرية مشيراً إلى القوات البحرية التي تستخدم الطريق الواجب اتباعه، والطريقة المتبعة لاحتواء ومهاجمة الموقع وأكثر الطرق المناسبة للعملية. وأخيراً يقترح بيلوتي وسائل ليجعل الشعب المسلم يعتنق المسيحية بعد الغزو والرفاهية المؤكدة للإسكندرية، والتى سوف تجذب عائلات مسيحية عديدة على القدوم والإقامة بها[٢٩].

أما في الجزء الثالث من الكتاب فيتحدث بيلوتي الكريتي عن الحالة الراهنة للقوة السياسية والعسكرية لمصر، حيث يروي بيلوتي مجموعة من الأحداث، معظمها معاصرة وكان شخصياً مشاركاً في بعضها، ولن يكون هناك أية صعوبات في الاستيلاء على الاسكندرية، ويوضح أن القوة العسكرية للسلطان تكمن في طبقة المماليك، ويشير أن هذه الفرق هى الدفاع الوحيد عن مصر، ويبين أن نجاح الحملة الصليبية ضد مدينة الإسكندرية يتوقف على اتحاد واتفاق الأمم المسيحية وتلاحم الجهود. ويرجع بيلوتي الكريتي انقسامات المسيحيين من أسباب خسارة المواقع الشامية مثل عكا وطرابلس وفيما بعد كارثة نيقوبوليس. ومع ذلك يعقد بيلوتي أملاً جديداً على المصالحة التي تمت حديثاً بين البندقية وجنوه، ويتوقع إمكانية ضم بعض المماليك الذين ترجع أصولهم إلى المسيحية بسبب غضبهم على السلطان. ويرجع انتصار المسلمين وتوسعهم الإقليمي إلى وحدة عقيدتهم والى تلاحمهم، بينما المسيحية على العكس من ذلك منقسمة بانشقاقها الكبير. ويذكر بيلوتى أن جشع السلطان الأشرف برسباي أدى إلى إعاقة التجارة. بيد أنه بالرغم من الإدارة السيئة عند بعض الأمراء، فإن عدالة السلطان كانت حيادية

---

(٢٨) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 17 - 18.

(٢٩) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 18.

عن مثيلتها في روما. أما بالنسبة إلى الأسطول، فقد كان السلطان غير قادر على تسليح سفن حربية، بسبب نقص الخشب اللازم لصناعة المجاديف، ولكن ذلك لم يحول بينه وبين الاستيلاء على قبرص[٣٠].

الأوضاع السياسية الدولية في القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى:

ولابد لنا قبل الخوض فيما كتبه بيلوتي الكريتي عن مصر أن نستعرض الأوضاع السياسية الدولية آنذاك، حيث كانت الأوضاع آنذاك فترة إرهاص في تاريخ الإنسانية، إذ كانت فجر عهد جديد من الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية، فقبل نهاية القرن ٨هـ / ١٤م بسنوات قلائل سقطت القوة الإسلامية في الأندلس، وأخذت بعض دول أوروبا تتكتل لمضايقة مصر اقتصادياً لتعطيلها عن ممارسة نشاطها التجارى لا سيما في تجارة الكارم[٣١]، كما قامت محاولات أخرى جانبية في هذا الميدان ذاته،وقبل ذلك بقرن تقريباً لمقاطعتها تجارياً أو لتحويل مجرى النيل، وصدرت عن كل هذا تقارير مختلفة على مستويات عالية .

وكان الغرب المسيحى في حالة لا تسمح له بالإعداد لحملة صليبية جديدة على مصر؛ لذلك نعم شرق البحر المتوسط بفترة هدوء من جهة الصليبيين اللهم إلا من بعض هجمات قام بها المغامرون من جزيرة قبرص على سواحل الشام الغربية مركز تجمعهم. وأصبح مناخ المنطقة ملائماً لعقد علاقات طيبة بين البندقية المسيحية ومصر الإسلامية استمرت إلى منتصف الستينيات من القرن ٨هـ / ١٤م[٣٢].

---

(٣٠) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 19 - 20.

(٣١) تجارة الكارم تنسب إلى "الكارمية" وهم فئة من كبار التجار اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى وشرق افريقيا في التوابل وما إليها من السلع الأخرى. عطية القوصى، وثائق الجنيزة وأهميتها في دراسة تاريخ مصر الإسلامية، مجلة جامعة القاهرة، العدد الخامس (١٩٧٤م)، ص ١٨٥–١٩٠؛ وقد أطلق اصطلاح "تجارة الكارم على التجار الذين كان معظمهم في البدء من أهل كانم الإسلامية، سعيد عاشور، العصر المملوكي في مصر والشام (القاهرة ١٩٧٦م)، ص ٢٠٩. لمزيد من التفاصيل انظر: عطية القوصى، أضواء جديدة على تجارة الكارم والكارمية، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ٢٢ (١٩٧٥م)؛ صبحى لبيب، التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ٤ (١٩٤٩م)؛ الشاطر بصيلى، الكارمية، مقال في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ١٣ (١٩٦٧م)؛ محمد عبد الغنى الأشقر، تجار التوابل في مصر في العصر المملوكى، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ١٣٧ (القاهرة ١٩٩٩م).

(٣٢) ناجلا محمد عبد النبى، مصر والبندقية العلاقات السياسية والاقتصادية في عصر المماليك (القاهرة ٢٠٠١م)، ص ٤٧–٤٨.

وكـان لطـرد الصـليبيين مـن الشـام رد فعـل عنيـف فـي الغـرب الأوروبـى، فنـادى المتحمسون للحروب الصليبية – وعلى رأسهم البابوية – بأن دولة المماليك هى السبب وأنه لا سبيل لاستعادة بلاد الشام إلا بإضعاف دولة المماليك أولاً. ولما كان معروفاً أن دولة المماليك تستمد ثروتها وقوتها من احتكار التجارة بين الشرق والغرب فقد نادى أصحاب المشاريع الصليبية في القرنين ٧-٨هـ/١٣-١٤م بضرورة فرض حصار اقتصادي شديد على شواطئ مصر والشام لمنع التجار الأوروبيين من الوصول بسفنهم إليها والمتاجرة مع دولة المماليك، فتصاب تجارة المماليك بالكساد والبوار، وبالتالي يفقدون الأساس الأول لثروتهم وقوتهم[٣٣].

وقد أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم على التجار الأوروبيين الذهاب بسفنهم إلى شواطئ دولة المماليك والمتاجرة مع المسلمين. ولكن كثيراً من التجار الإيطاليين بصفة خاصة رفضوا تنفيذ الأوامر البابوية حرصاً على مصالحهم الاقتصادية، ومن ثم لم يعد هناك مفر أمام البابوية من إنشاء قوة مراقبة عسكرية بحرية في شرق البحر المتوسط تتصيد ذلك النفر من التجار الأوروبيين الذين استمروا يغذون دولة المماليك بأموالهم، ضاربين عرض الحائط بنداءات البابوية وأوامرها[٣٤] .

ولم يكن هناك في شرقي حوض البحر المتوسط أفضل من جزيرة قبرص يتخذها الغرب الأوروبي مركز المراقبة للشواطئ الإسلامية في مصر والشام من جهة، ولضرب المسلمين وشن غارات على موانيهم من جهة أخرى. والمعروف أن جزيرة "قبرس" دخلت دائرة الحروب الصليبية في أواخر القرن الثانى عشر عندما استولى عليها ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة. ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرص – تحت حكم ملوكها الصليبيين من آل لوزنيان[٣٥] – تقوم بدور بارز في النشاط الصليبى في شرق البحر المتوسط؛ وهو الدور الذي ازداد قوةوظهوراً عقب طرد الصليبيين من الشام في أواخر القرن ٧هـ/١٣م، إذ غدت قبرص عندئذ أكبر قاعدة صليبية في شرق البحر المتوسط[٣٦]؛ ذلك أن ملوك قبرص من آل لوزنيان لم يكتفوا بتقديم المشاريع الصليبية التي استهدفت خنق دولة المماليك، ولم يقنعوا بجعل جزيرتهم مركزاً

---

[٣٣] سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص ١١١٩ – ١٢٠٨؛ العصر المماليكى، ص ١٣٦.

[٣٤] سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص ١٣٦ – ١٣٧.

[٣٥] أسرة لاتينية حكمت جزيرة قبرص منذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، وذلك بداية من جان دي لوزنيان الذي حكم الجزيرة عام ١١٩٢م. عاطف مرقص بطرس، قبرص والقوى الصليبية في القرنيين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة دكتوراة غير منشورة، آداب عين شمس، ١٩٩١م، ص ١٠٥.

[٣٦] سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص ١٢٠٥؛ العصر المماليكى، ص ١٣٧.

لتهديد التجارة المملوكية عن طريق إيواء القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن والموانئ الإسلامية من ناحية، وفرض رقابة على السفن الأوروبية لمنعها من الوصول الى موانئ مصر والشام من ناحية أخرى. لم يكتف ملوك قبرص من آل لوزنيان بكل ذلك، وإنما شرعوا يهاجمون بأنفسهم المسلمين حيثما وجدوهم في آسيا الصغرى والشام ومصر، وبذلك بدأوا صفحة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية أواخر العصور الوسطى[٣٧].

ومن أبرز الهجمات الصليبية التي شنها ملوك قبرص على بلاد الإسلام في القرن ٨هـ/١٤م، تلك الحملة الجريئة التي قام بها بطرس الأول لوزنيان ضد مدينة الإسكندرية عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م. وقد مهد الملك بطرس لحملته برحلة واسعة زار فيها كثيراً من بلدان الغرب الأوروبي فضلاً عن البابوية، وحصل على مساعدات وإمدادات بشرية وحربية ومادية كبيرة وأخيراً اجتمعت تلك الحشود في جزيرة رودس تمهيداً لاختيار أصلح نقطة في دولة المماليك يمكن أن يوجه إليها الصليبيون ضربتهم. وكان أن أشار أحد الصليبيين على ملك قبرص بأن تتجه الحملة ضد الإسكندرية على أن يهاجمها الصليبيون يوم جمعة والمسلمون في المساجد[٣٨]. وربما لو نجح الملك القبرسى في غزو الإسكندرية كان سيحصل على امتيازات جديدة لأن الإسكندرية تُعد كبرى موانى البحر المتوسط وأغناها. يضاف إلى ذلك أن الحالة الاقتصادية في مصر آنذاك لم تكن تسمح لها بالاستعداد لمواجهة أى عدوان على البلاد، فقد وصلت السفن الصليبية إلى الإسكندرية بقيادة بطرس لوزنيان ملك قبرص عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، في وقت كانت دولة المماليك تعانيخللاً واضحاً واضطراباً كبيراً نتيجة لقيام سلطان قاصر – وهو السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون – ٧٦٥–٧٧٨هـ / ١٣٦٣ – ١٣٧٦م – ووصى جائر متغطرس عسوف هو الأمير يلبغا الخاصكي[٣٩]. هذا في حين كان نائب الاسكندرية، وهو الأمير خليل صلاح الدين بن عرام، متغيبا في أداء فريضة الحج. وفى ظل تلك الظروف لم يصعب على الصليبيين إنزال قواتهم إلى الشاطئ، فاحتلوا الإسكندرية يوم الجمعة وانسابت قواتهم في شوارع المدينة يحرقون المساجد ويخربون الخانات ويدمرون المنازل ويعتدون على كل من

---

[٣٧] سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص ١٣٧؛ قبرص والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧م)، ص ٤٦.

[٣٨] سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص ٥٨.

[٣٩] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ١، ق ٢، ص ٢٤.

صادفهم من النساء والأطفال والشيوخ، وينهبون كل ما وصلت إليهم أيديهم من بضائع وأموال[٤٠]. وكانت هذه الحادثة من أشد الحوادث على المسلمين لم يقع مثلها قط من مبتدأ الإسلام[٤١].

وهكذا قضى الصليبيون في الإسكندرية نحواً من ثلاثة أيام كانت من أشد الأيام في تاريخ الثغر، ولم يغادروها إلى سفنهم إلا بعد أن أحسوا بقرب جيوش المماليك التي أسرعت من القاهرة لإنقاذ الاسكندرية. ويقال إن السفن الصليبية حملت معها عند رحيلها خمسة آلاف أسير منهم "**المسلم والمسلمة واليهودى واليهودية والنصرانى والنصرانية...**" [٤٢] وهكذا لم يفرق الصليبيون بين مسلم ومسيحى ويهودى، وبين ما هو للمسلمين وما هو لغير المسلمين.

وأخيراً وصل يلبغا الخاصكي إلى الإسكندرية في جند كثيف "كالجراد المنتشر" بعد أن أخلاها الصليبيون، فشهد ما حل بها من دمار وخراب ورأى جثث القتلى وقد انتفخت وجافت، فأمر بدفن من استشهد من المسلمين وترميم ما خرب وأحرق[٤٣].

ثم إن بطرس لوزنيان لم يكتف بما فعله بالإسكندرية وإنما أغار على طرابلس بالشام عام ٧٦٩هـ/١٣٦٧م، وإن كانت تلك الإغارة قد منيت بالفشل[٤٤]. هكذا جاءت دولة المماليك الثانية المعروفة بدولة المماليك الجراكسة إلى الحكم لتواصل سياسة أسلافها في إبعاد الخطر الصليبى عن أرضها والمحافظة على ما وصلت إليه من اتساع في رقعتها[٤٥].

بدأت دولة المماليك الجراكسة حكمها بتولى السلطان الظاهر برقوق السلطنة عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م،وكان منتظراً منه أن يبدأ حكمه باضطهاد المماليك الترك، ولكنه أظهر حكمة كبيرة فحرص على استرضاء الترك في أول حكمه،ولكن لم يستمر طويلاً في تلك السياسة، وإنما

---

[٤٠] النويرى السكندرى، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الاسكندرية، تحقيق عزيز سوريال عطية (حيدر آباد ١٩٧٣م)، جـ١، ص ٣٢٦ – ٣٣٥؛ سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص ٦٣ – ٦٤.

[٤١] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص ٢٤.

[٤٢] سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص ١٣٨.

[٤٣] سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص ٦٩؛ العصر المماليكى، ص ١٣٩.

[٤٤] المقريزى، السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، جـ٣، ق١ (القاهرة ١٩٣٤-١٩٧٢)، ص ١٤٩ – ١٥٠ .

[٤٥] ناجلا عبد النبى، مصر والبندقية، ص ٥٨.

أخذ تدريجياً يختص الجراكسة بالاقطاعات والوظائف الكبيرة على حساب المماليك الترك، وقد أدت هذه السياسة إلى نشوب كثير من الثورات التي اتصف بها عهد برقوق[٤٦].

وإذا كان السلطان برقوق قد نجح في القضاء على الأخطار الداخلية التي هددت حكمه من جانب الترك والعربان، وبذلك دانت لسلطانه مصر والشام، فإن ثمة خطراً خارجياً كبيراً هدد دولة المماليك الجراكسة هو خطر جحافل المغول بقيادة تيمورلنك فقد استولى على بلاد ما وراء النهر وخراسان وطبرستان حتى استولى على مدينة تبريز عام ٧٨٨هـ/١٣٨٦م كما خرب الرها في العام التالى[٤٧]. ولم يلبث حكام ماردين وبغداد وغيرهما أن كتبوا إلى السلطان برقوق يستنجدون به ضد ذلك الخطر التترى الجديد. ولكن تيمورلنك أسرع في العمل فاستولى على بغداد عام ٧٩٦هـ/١٣٩٣م وخربها وقتل كثيراً من أهلها[٤٨].

وبوصول تيمورلنك إلى تلك المرحلة صار الصدام بينه وبين دولة المماليك أمراً قريب الحدوث.وكان أن أرسل تيمور لنك رسالة إلى السلطان برقوق تحوى كثيراً من التهديد والترغيب، فوجد برقوق أن أسلوب الخطاب لا يختلف عن الأسلوب الذي تعامل به مع البلاد التي هزمها[٤٩]، ولكن برقوق أمر بقتل رسل تيمولنك، ورد عليه بخطاب شديد اللهجة أوضح فيه أنه لا يخاف تهديداته. ولما كان تيمو لنك قد جنى عداء حكام دول الشرق الأدنى من مماليك وتركمان وقفجاق وعثمانيين، فقد اتفق الجميع على التكاتف من أجل صد هجماته[٥٠]، ويبدو أن صمود السلطان برقوق وتحديه، جعل تيمولنك يتراجع عن مهاجمة أراضى الدولة المملوكية وعاد إلى بلاده[٥١] .

وهكذا تمكنت دولة المماليك الجراكسة من إثبات وجودها في المنطقة بتصديها لجيوش تيمورلنك، مما جعل باقى حكام المنطقة يتقربون إليها، عارضين تحالفهم مع السلطان[٥٢]. ولم يعاود تيمور لنك الكرة إلا بعد وفاة السلطان برقوق وتولى ابنه الناصر فرج مقاليد الحكم عام ٨٠١هـ/١٣٩٨م، الذي لم يتبع سياسة أبيه في المحافظة على حسن الجوار مع حكام المنطقة.

---

[٤٦] ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٢٢٦ وما بعدها.

[٤٧] ابن عربشاه، عجائب المقدور في أخبار تيمور (القاهرة ١٢٨٥هـ)، ص ٤٩ .

[٤٨] سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص ١٦٤ – ١٦٥.

[٤٩] حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٢٤ – ١٢٥.

[٥٠] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص ٣٠٢.

[٥١] حكيم أمين، قيام دولة المماليك، ص ١٢٥.

[٥٢] ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، تحقيق نجلاء عز الدين وقسطنطين رزيق، جـ٩ (بيروت ١٩٣٦م)، ص ٣٨١ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ٢١٧ .

وبدأ في خلق العداءات مع جيرانه[٥٣]، مما شجع المغول على مهاجمة مدن الشام ثانية والعبث فيها فساداً[٥٤]. ويبدو أن أخبار ما فعله تيمورلنك بدمشق جعلت السلطان فرج يرضى بالصلح معه، وعقدت في النهاية معاهدة صلح بين الطرفين عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م[٥٥]. هذا عن الأوضاع السياسية في القرن ٩هـ/١٥م.

بيلوتى الكريتي والحياة السياسية في مصر:

لا يمكن أن نغفل الأحداث السياسية التي عاصرها المؤلف ومنها ثورة المماليك ضد السلطان فرج بن برقوق. فيشير بيلوتي الكريتي بقوله: "**حدث ذلك في وقت زيارتي لمصر، ثورة ضد السلطان الملك القاصر فرج بن الظاهر برقوق وظهر التمرد في بلاد الشام ولكنه قام بحشد قواته في القاهرة وذهب لمحاربة متمرديه، وفى البداية بعث بالخيالة راكبي الجياد وكانوا على مسيرة يوم أمام السلطان. وجدير بالذكر أن قواد هؤلاء الجنود كانوا من النصارى المرتدين وبلغ عددهم اثنين، قاموا بخيانة سلطانهم وتحالفوا مع متمرديه، وكان السلطان يثق بهؤلاء الاثنين وبجنوده البالغ عددهم ألف جندى، قاموا بالزحف لمدة ليلة كاملة، وكأنهم ذاهبون للقتال إلا أنهم عادوا إلى الخلف وانقضوا على السلطان وأعوانه الذين كانوا مستغرقين في النوم، وقاموا بالاستيلاء على الخيول، وأهلكوا الكثير وهرب الباقون، أما السلطان فقد فر هارباً ومعه مائتان من الخيالة وتوجهوا إلى دمشق وهناك احتمى بقصره، أما متمردوه فقاموا بالزحف إليه في دمشق وحددوا مكان إقامته في قصره السلطاني، وكانوا يحسنون معاملة السلطان ولكن خشي متمردوه عودته للسلطنة والسيادة مرة أخرى، لأنه سينتقم منهم نظير خيانتهم له، ولهذا تقربوا إلى الخليفة المستعين العباسى ٨١٥هـ / ١٤١٢م وأظهروا له الولاء والطاعة، كسيد وسلطان عليهم، ثم بدأوا يكيدون المكائد للسلطان فرج وقالوا عنه أنه قام بأعمال قتل واسعة ضد الناس تحت اسم العدالة واتهموه بتناول لحم الخنزير وشرب الخمور إلى غير ذلك من القصص العديدة التي جعلته يستحق الموت لأجلها، ونتيجة لذلك صرح الخليفة برغبته في الحديث مع السلطان وتقديم النصح والإرشاد له. فأرسل للسلطان بعض الشيوخ، ولكنهم أصدروا قرارهم بموته ونفذوا قرارهم، وهكذا حل الخليفة محل السلطان**"[٥٦].

---

[٥٣] ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ٢١٥-٢١٦ .

[٥٤] ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ٢٢٠-٢٢٧ .

[٥٥] القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٤، ص ١٠٤ – ١٠٧ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص ٦٤٥،

[٥٦] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 12 - 13.

وقد أشارت المصادر العربية المعاصرة إلى أسباب هذه الثورة. ففى عام ٨٠١هـ/١٣٩٩م مات السلطان برقوق بعد أن عهد بالسلطنة إلى ابنه فرج الذي لقب بالناصر فرج، وكان في الثالثة عشرة من عمره، فبدأت المنافسات والمنازعات بين كبار الأمراء، الأمر الذي جعل السلطان فرج يزهد في العرش، فهرب الصبى من القلعة عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م واختفى ببيت أحد أنصاره، عندئذ بايع الأمراء أخاه عبد العزيز بالسلطنة وتلقب بالمنصور[٥٧]. ولكن الصراع بين أمراء المماليك في تلك الفترة اتخذ صورة مؤازرة أحد أبناء برقوق ضد الآخر؛ فعندما أحس بعض الأمراء بأن الأمير بيبرس الأتابك علت مكانته بحكم وصايته على المنصور عبد العزيز سعوا لعودة فرج إلى العرش. وعاد السلطان فرج إلى السلطنة بعد شهرين من اختفائه، واستمر تلك المرة في الحكم نحواً من سبع سنوات ٨٠٨-٨١٥هـ/١٤٠٥-١٤١٢م، اتصفت بالاضطراب والفوضى وسوء تدبير الحكم، فقد عمل السلطان فرج خلالها على استئصال شأفة المماليك الجراكسة حتى قيل أنه قتل منهم مائة جركسى في يوم واحد ثم عاد وقتل ستمائة وثلاثين جركسيا في عام ٨١٤هـ/١٤١١م[٥٨]. لذلك لم يكن عجيباً أن يلقى حتفه على يد واحد منهم في عام ٨١٥هـ/١٤١٢م بالقرب من دمشق وظلت جثته ملقاة بالمزابل خارج المدينة ثلاثة أيام قبل أن يدفن بها. وبعد مقتل فرج ابن برقوق تسلطن الخليفة المستعين، ومن الواضح أن اختيار المستعين للسلطنة لم يكن إلا إجراءً شكلياً حتى يستقر الموقف، وكان أتابك العسكر في ذلك الوقت هو شيخ المحمودي الذي تمكن من عزل المستعين بعد أقل من ستة أشهر وأعلن نفسه سلطاناً على البلاد وتلقب بالمؤيد شيخ المحمودى عام ٨١٥ - ٨٢٥هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١م[٥٩].

وقد تحدث بيلوتي الكريتي عن هذه الثورة التى قامت ضد السلطان الناصر فرج، فقد كثرت الفتن في أنحاء الدولة - وبخاصة في الشام - على عصر فرج بن برقوق، ففي سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م ثار جكم نائب[٦٠] حلب وأضفى على نفسه لقب سلطان وتلقب بالعادل. ولكن

---

[٥٧] ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشى، جـ٢ (القاهرة ١٩٩٤م)، ص ٣١٩-٣٢٠.

[٥٨] ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٢، ص ٣٢٧ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص ٨١٤؛.

[٥٩] *G*. Wiet, *L'Egypte arabe* dans *Histoire de la nation égyptienne* (Le Caire 1938), pp. 542-548.

[٦٠] هو جكم بن عبد الله من عوض الظاهرى، الأمير سيف الدين الملقب بالملك العادل نائب حلب، كان من عتقاء الملك الظاهر برقوق ومن أعيان خاصكيته، أمره عشرة، ثم طبلخاناه، وصار فى دولة ابن استاذه الملك الناصر فرج بن برقوق أمير مائة مقدم ألف، ولا زال يترقى حتىصار دواداراً كبيراً ، تولى نيابة حلب فى عام ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م قتل على يد أحد جنود قرايلك التركمانى عام ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م . لمزيد من التفاصيل انظر : ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٤، ص ٣١٣ ؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٢٤٧ رقم ٨٤٨ ؛ المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٤٦ ؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٧٦، رقم ٢٩٢ .

جكم قتل بعد شهرين، فتحالف نوروز نائب الشام والأمير شيخ نائب طرابلس وأعلنا الثورة على السلطان فرج في القاهرة، بل لقد زحفا بجيوشهما نحو مصر عام ٨١١هـ/١٤٠٨م وعندما خرج السلطان فرج إلى الشام لقمع تلك الثورة حلت به الهزيمة قرب دمشق عام ٨١٥هـ/١٤١٢م وقبض على فرج ليقتل قتلة شنيعة، في حين أدى التنافس بين الأميرين شيخ ونوروز إلى اختيار الخليفة المستعين العباسي سلطاناً عام ٨١٥هـ/١٤١٢م[٦١].

بيلوتي الكريتي والقناصل الأوروبيون في مصر:

استكمالا لرؤيته للحياة السياسية في مصر تحدث بيلوتي الكريتي عن نظام القناصل داخل الدول التي أسستها الحملات الصليبية في الشرق إلى نهاية القرن الحادى عشر، فيذكر أن هذه الدول يتم العمل فيها بالنظام الاقطاعي، وكانت المستعمرات التجارية تقوم بدفع حصتها من المال وفقاً لنصيبها من الجمارك المحلية. ولهذه المستعمرات الحق في امتلاك حي من الأحياء داخل المدينة المهزومة، وكان يعين لهذه الحي أفراد لإدارته، يطلقون عليهم في البداية لقب "كونت" ثم تغير هذا اللقب بعد ذلك إلى "قنصل" . وفى مصر يعود نظام القناصل البنادقة إلى بداية القرن الثاني عشر الميلادي، وقديماً حينما كان يرغب السادة الأقباط في الدخول إلى بلاد السلطان في القاهرة كانوا يقومون بإرسال سفرائهم لمقابلة السلطان، وهناك يتفقون معه على أن يكون لكل دولة منهم "قنصل" في الاسكندرية،ويتم دفع مبلغ من المال لكل منهم سنوياً ، وكذلك أنشأت لهم فنادق يسكنون فيها. وكان لكل تاجر أجنبي في مصر مستشارون ولدى كل مستشار منهم الحق في الحكم والتسيد على كل تجار أمته وذلك لتمثيل قومه والدفاع عنهم أمام السلطان إذا ما أخطأوا[٦٢].

وكان لكل مستشار يوم معين يقابل فيه تجاره في الجمرك، وكانوا على الدوام مراقبين، وكان السلطان المملوكي يقول: "**أيها السادة الأقباط، كل اتفاق أبرمته معكم أو مع مستشاريكم، الغرض منه تجنب حدوث أى كارثة أو انقسام وأيضاً لعمل لقاءات طيبة مع المستشارين**

---

[٦١] العينى، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى، تحقيق فهيم شلتوت، محمد مصطفى زيادة، (القاهرة ١٩٦٧م)، ص ٢٥٩ – ٢٦٠.

[٦٢] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 76 - 77.

"[٦٣]. وهكذا أعطى بيلوتي الكريتي مادة علمية جيدة عن هؤلاء القناصل ومحل إقامتهم وكيفية تعاملهم مع التجار.[٦٤]

ولا نغفل تناول بيلوتي شكوى قنصل البندقية إلى السلطان الناصر فرج ضد أمراء الإسكندرية وسوء معاملتهم لتجار البندقية وإجابة السلطان النبيلة. فقد كان هناك قنصل للبندقية في القاهرة يدعى اندريا جوستيان وقف أمام السلطان قائلاً : "**جلالة السلطان أن رب بلادكم هو رب المسلمين والمسيحيين وكل المخلوقات الموجودة في كل بقاع الأرض، إننا أهل البندقية، داخل ديارنا سادة وبارونات كأسلافنا، ومثل معاونيكم يأتيكم من بلادنا التجار محفوفين بالمخاطر وأهوال البحر وخطر القراصنة، للبيع والشراء في بلادكم، وقد حدث على أرض الاسكندرية، أنه قام اثنان من الأمراء وثلاثة ضباط بالإساءة إلينا ومعاملتنا بشكل غير لائق، ومع ذلك نتحلى نحن بالصبر لكننا لم نعد نستطيع تحمل المزيد. فنأسف لقرارنا بمغادرة بلادكم وربما مع الوقت، نستطيع العودة إليكم مرة أخرى، ولكن تلك المرة ستكون مختلفة**". وبعد هذا الحديث نظر السلطان إلى أمرائه وأعوانه وتحدث إليهم بإيجاز، ثم اتجه مرة أخرى للقنصل وقال له: "**.... يقولون إنك مشهور بالحكمة ورجاحة العقل بين الناس لكن هذه المرة خانتك حكمتك وعقلك، تشكو لى من أعوانى وتقول أنهم ليسوا بالصحبة الجيدة، أجيبك أنا هنا، وإذا كان بالفعل أساء إليك مماليكى وأعوانى وكانوا بالنسبة لك بالصحبة السيئة، فيحق لك استدعاء واحد من رسلك أمامى وبعدها تقول إن بلادي هى بلاد الله .. رب المسلمين والمسيحيين وكل الخليقة وهنا أجيبك إني لا أستطيع أن أتمنى لها شيئاً آخر، فأنا أريد أن تكون بلادي بالفعل بلاد الله، رب المسلمين والمسيحيين وكل المخلوقات، وتشير أنه بسبب صحبة رجالي السيئة، تريد مغادرة البلاد، وإنكم ستعودون يوماً بالقوة التي سيمنحكم إياها الله، فأجيبك أولاً عن قوتكم أنتم يا أهل البندقية لا أجدها أنا، وعن إيمانكم أقول أنه مقتسم في جهتين: لديكم من**

---

(٦٣) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 78.

(٦٤) كان يتم اختيار القنصل من بين طبقة النبلاء، ويظل في منصبه لمدة ثلاث سنوات يتولى فيها مهام رعاية مصالح أبناء بلده وشأنه شأن قناصل المدن الأخرى، وكان يتقاضى راتباً سنوياً من السلطان المملوكي. يقدر بمائتين من الدوكات تدفع له من خزانة الجمارك، وهذه المكافأة التي منحها السلطان لممثلي القوى التجارية الغربية، كانت الدليل الملموس للثمن الذي يدفعه للحفاظ على علاقاته مع تلك القوى، والتى كانت تدر عليه الكثير من المكاسب، ولكن مقابل ذلك كان كثيراً ما يقبض على القنصل ويعتبر رهينة لدى السلطان إذا ما تعرض المصريون أو أملاك الدولة لتصرف عدائي من البندقية أو غيرها من دول الغرب المسيحي، فكان السلطان يصب غضبه وانتقامه على القنصل. انظر ناجلا محمد عبد النبى، مصر والبندقية العلاقات السياسية والاقتصادية، ص ١٨٠-١٨١.

الباباوات اثنان نصفكم يؤمن بواحد والنصف الآخر مع البابا الآخر. ولأننا نحن المسلمين نؤمن بإله واحد، الإله الحقيقى إله السموات والأرض فلنا خليفة واحد الذي هو محل واحد من باباواتكم، وله الطاعة من كل الأمة، وقد وهبنا الله السيف والقوة للانتصار ..." وبعد سماع هذه الإجابة من السلطان رحل القنصل من أمام السلطان الناصر فرج بن برقوق[٦٥].

وتشير المصادر المعاصرة بتميز البنادقة عن غيرهم من الجاليات الغربية الأخرى. ويبدو ذلك في الخطاب الذي أرسله الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس باليولوجوس[٦٦] للسلطان برقوق عام ٧٨٧هـ/١٣٨٥م طالباً "**أن يكون لهم (أى للبيزنطيين) قنصل بالإسكندرية كالبنادقة**[٦٧]. وهذا دليل على أن البنادقة كانت لهم مكانة تسمو على مكانة أية جالية أخرى في مصر، ويبدو أنهم ظلوا محتفظين بتلك المنزلة في مصر حتى أخريات القرن الخامس عشر الميلادي (أخريات القرن التاسع الهجرى). وأكد ذلك الرحالة فليكس فابري عند زيارته لمصر عام ٨٨٨هـ/١٤٨٣م من أن البنادقة أقوى جالية وأشار أنه شاهد اعتداء أحد التجار البنادقة على صعلوك مصري في فندقهم بالإسكندرية ولم يعترض أحد على ذلك[٦٨].

بيلوتي الكريتي ووصفه لمماليك مصر:

أشار بيلوتي الكريتي إلى شراء المماليك من أكبر مراكز تجار الرقيق في البندقية، حيث يوجد أكبر تجار للرقيق، ولم يكن لهؤلاء تجارة أخرى غير شراء الرقيق (ذكور وإناث) من صغار السن لصالح اسم السلطان وبعدها يتم نقلهم للقاهرة، وكانوا يمتلكون من هؤلاء الصغار من مائة إلى مائتين فرد، كانوا يقودونهم إلى غاليبولي Galipoli ثم ينقلون بحراً إلى دمياط أو الإسكندرية وهو الطريق الأكثر استخداماً ومنها إلى القاهرة وهناك يتم فحصهم أمام السلطان للتأكد من أنه لا يوجد بينهم من هو كبير السن أو منهك القوى أو ضعيف البنية لأنهم سيكونون ضمن حاشيته وجيشه، وبعد ذلك يتم المفاضلة بينهم طبقاً لجنس كل منهم فالأفضلية تأتى للمغول أولاً ، لأن سعر الفرد منهم كان يتراوح ما بين مائة وثلاثين أو مائة وأربعين عملة ذهبية ثم الجراكسة، الذين تتراوح القيمة الشرائية لهم من مائة إلى مائة وعشرين عملة ذهبية، وأخيراً

---

(٦٥) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 83 - 84.

(٦٦) جلس على عرش الإمبراطورية البيزنطية من عام ١٣٤١م إلى عام ١٣٧٦م، ثم من عام ١٣٧٩ إلى عام ١٣٩١ .

(٦٧) ابن حجر، أنباء الغمر بأنباء العمر، جـ١، ص ٣٠١ .

(٦٨) F. Fabri, *Le voyage en Egypte (1483)*, trad. du Latin, presenté et annoté par J. Masson (Le Caire 1975), p. 697.

اليونانيون والألبان، وكان تقدير المبلغ لكل مملوك مشترى يتم بالعملة الذهبية ويحدد له صك المبلغ[٦٩].

وجدير بالذكر أن المصادر العربية تشير إلى أسعار المماليك وتقسمها إلى ثلاث فئات: أسعار باهظة، وأسعار متوسطة، وأسعار زهيدة[٧٠] فيروى السخاوى أن السلطان المؤيد شيخ اشترى يشبك المشد[٧١]، وقت أن كان نائباً لطرابلس بألفى دينار[٧٢] كما تتحدث المصادر عن لقب الألفى الذي أطلق على السلطان المنصور قلاوون نسبة إلى قيمته التي اشترى بها، إذ اشتراه أستاذه الأمير علاء الدين أقسنقر بألف دينار وغالى في قيمته لحسنه وصورته[٧٣]. ونقر أيضاً أن الأمير فارس الدين اقطاى بيع كذلك بألف دينار[٧٤] . أما الأسعار الزهيدة التي دفعت في بعض مشاهير المماليك، فقد روت المصادر أن السلطان الظاهر بيبرس بيع في دمشق بثمانمائة درهم، أى ما يقرب من أربعين دينار، لبياض في إحدى عينيه[٧٥]. كما تتحدث المصادر عن مملوك آخر بيع بسعر يتراوح ما بين سبعمائة وخمسين درهماً ، وألف درهم وهى تعادل في هذا العصر ما بين سبعة وثلاثين وأربعين ديناراً[٧٦]، وتتحدث أيضاً عن يشبك بن عبد الله السودونى الذي اشتراه السلطان الظاهر ططر بمائة دينار[٧٧]. ونقرأ كذلك أن السلطان

---

(٦٩) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 15.

(٧٠) D. Ayalon, "L'esclavage mamlouk," *Oriental Notes and Studies*, No. I (Jerusalem, 1951), pp. 6-9.

ولمزيد من التفاصيل عن أسعار المماليك انظر : السيد الباز العرينى، المماليك، بيروت ١٩٦٧م ؛ أحمد عبد الرازق، الجيش المصرى فى العصر المملوكى، (القاهرة ١٩٩٨م) .

(٧١) هو الأمير يشبك الشعبانى المشد . عنه انظر : العينى، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى، تحقيق فهيم شلتوت، محمد مصطفى زيادة، ص ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٥٠،وأيضاً ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ٤٥ وما بعدها .

(٧٢) السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، جـ١٠ (القاهرة ١٣٢٥-١٣٥٥هـ)، ص ٢٧٩.

(٧٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ٧ (القاهرة ١٩٣٠م)، ص ٣٢٥؛ الذهبى، دول الإسلام، جـ٢ (حيدر أباد ١٣٣٧هـ)، ص ١٤٦؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٣٥.

(٧٤) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق محمد محمد أمين ونبيل عبد العزيز، جـ٢ (القاهرة ١٩٨٥ – ١٩٩٤م)، ص ٥٠٤؛ الذهبى، دول الإسلام، جـ٢، ص ١٢٠ .

(٧٥) المقريزى، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٦٣٧ .

(٧٦) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٩، ص ٢٢٢؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر، جـ٥ (القاهرة ١٨٦٧ – ١٨٦٨)، ص ٤١١؛ المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٨٢٠ .

(٧٧) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٧، ص ٢٩٩؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٠، ص ٢٧٧.

طط نفسه بيع عام ٨٠١هـ/١٣٩٨م باثنى عشر ألف درهم[٧٨] تعادل ما بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ديناراً ، وأن السلطان المؤيد شيخ ابتاع أثناء أمرته أقباى[٧٩] بألف درهم وقت أن كان صغيراً [٨٠].

لكن ما هو السعر المناسب للمملوك زمن سلاطين المماليك ؟

على الرغم من أن المصادر المملوكية قد عرفت بمادتها الغزيرة فإننا لم نعثر إلا على ثلاث حالات فقط من العصر الجركسى تساعدنا على التعرف على متوسط سعر المملوك إبان القرن ٩هـ/١٥م يذكر المؤرخ ابن إياس في أحداث عام ٨٣٩هـ/١٤٣٦م أن السلطان قايتباى قد ابتيع ضمن جماعة كبيرة من الرقيق بسعر خمسين دينارا للفرد الواحد[٨١]. ويروى المؤرخ ابن تغرى بردى عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م أن السلطان خشقدم ٨٦٦ – ٨٧٢هـ / ١٤٦١ – ١٤٦٧م اشترى من أحد تجار المماليك مائة مملوك كل مملوك بمائتى دينار. ويبدو أن هذا السعر كان مرتفعاً بعض الشئ مما جعل المؤرخ ابن تغرى بردى يبدى دهشته للثمن المرتفع الذي بذله السلطان في شراء أولئك المماليك[٨٢]. ويروى نفس المؤرخ أن السلطان قايتباى ابتاع عام ٨٧٣هـ/١٤٦٩م مماليك الظاهر خشقدم كل واحد بسعر يتراوح ما بين خمسة وعشرين وثلاثين ديناراً وهو سعر بخس في رأيه[٨٣]. وعلى هذا يمكننا القول بأن السعر المتوسط للمملوك كان يتراوح بين خمسين وسبعين ديناراً للفرد الواحد[٨٤].

---

[٧٨] ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٦، ص ٥٠٩.

[٧٩] اقباى بن عبد الله من حسين شاه الطرنطاى المعروف بالحاجب، استمر فى هذا المنصب عدة سنوات . لمزيد من التفاصيل انظر : ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، تحقيق عدنان درويش، القاهرة ١٩٩٢م، ص ٢٠٦ رقم ٣٤٥ ؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٢، ص ٤٦٥–٤٦٦ ؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ١٣٦ رقم ٤٧٧ ؛ النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص ١٧٦ ؛ محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى (القاهرة ١٩٤٧م)، جـ١، ص ٢٤٥ .

[٨٠] ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٦، ص ٣٧٤ .

[٨١] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢.

[٨٢] ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق بوبر (كاليفورنيا ١٩٣٠–١٩٤٢م)، ص ٥٣٤.

[٨٣] ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ص ٦٧٢؛ ابن إياس، بدائع الدهور، جـ٢، ص ٩٩ – ١٠٠، جـ٣، ص ١٦.

[٨٤] Ayalon, *L'esclavage mamlouk*, p. 9.

وتشير كتب الرحالة إلى شراء المماليك من البلاد الأوروبية المسيحية وكان يطلق عليهم الرقيق الأبيض من سلوفانيا وألبانيا والمغول وبلاد الجراكسة وإيطاليا وألمانيا[٨٥]. أما العبيد السود فكانوا يجلبون من بلاد افريقية وكانت أهم مدينتين تبيعان العبيد الأسود في الحبشة هما "وشلو وهدية"[٨٦]. وقد حرص سلاطين المماليك على شراء الرقيق حيث استطاع السلطان الظاهر بيبرس ٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م الحصول على ترخيص من الامبراطور البيزنطي بمرور سفينة مصرية في مضيق البسفور لجلب الرقيق، ثم أرسلت سفينتان من البحر الأسود محملة بالرقيق إلى أسواق القاهرة والاسكندرية[٨٧]. كما عقد السلطان المنصور قلاوون ٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩ - ١٢٩٠م اتفاقية تجارية تسمح بمرور التجار المسلمين عبر بلاده لشراء الجواري والرقيق دون عائق[٨٨] .

وكان طبيعياً أن يكثر تجار المماليك في هذه الأقاليم من شراء المماليك ويبعثون بهم إلى مصر ليأخذ منهم السلاطين ما يحتاجون إليهم في جيوشهم. ويشير بيلوتي الكريتي إلى هؤلاء التجار فيذكر أن السلطان المملوكي كان يمنحهم ثياباً من الأنسجة المذهبة، فكانوا يسيرون في شبه موكب، ممتطين الخيول وسط قرع الطبول ونفير الأبواق ويطوفون المدينة وسط صياح جنود السلطان وهم يرددون "**قد أحضر هؤلاء السادة ما يقرب من ثلاثمائة نفس سيصبحون من أمتنا وسيقوم السلطان بشرائهم ويحيون ويموتون على دين محمد**"[٨٩]

ويتحدث بيلوتى هنا عن المماليك السلطانية، يقول عنهم القلقشندى أنهم من أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم إلى السلطان قرباً وأوفرهم إقطاعاً ، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة[٩٠] .

---

[٨٥] لمزيد من التفاصيل انظر:

F. Larrivaz, *Le Saintes Pérégrination de Bernard, de Breydenbach* (Le Caire 1904), p. 55; Ghistell, *Voyage en Egypte, 1842*, trans by Bauwens Preaux (Bruxelles 1975), p. 36.

[٨٦] العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢هـ)، ص ٣٠؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥، ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

[٨٧] سمير على الخادم، الشرق الإسلامي والغرب المسيحى (بيروت ١٩٨٩م)، ص ٣٥٣.

[٨٨] القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٤، ص ٧٧؛ ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، تحقيق مراد كامل (القاهرة ١٩٦١م)، ص ٢٠٥.

[٨٩] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 15.

[٩٠] القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٥ ؛ ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر (القاهرة ١٩٠٦م)، ص ٢٤٤ .

وتخبرنا المصادر المملوكية المعاصرة أن أغلب هؤلاء التجار كانوا أغرابا وليس من أهل البلاد، لأن أغلبهم كان يحمل لقب الخواجا وقد يقال التجار الخواجكية، وهم على حد قول القلقشندى "**أكابر التجار الأعاجم من الفرس ونحوهم**"[٩١] .

ولا نغفل إشارة بيلوتي الكريتي إلى نشأة وتربية المماليك. فقد كانت قوة الدولة المملوكية ونفوذ السلطان في القاهرة يزداد، ووجد داخل قصره أعداد غفيرة من الرقيق، وكل مجموعة تكون منفصلة عن الأخرى، وكانوا يعلمونهم الدين الإسلامى، وحينما ينتهون من هذه المرحلة، يقود كل رئيس مجموعة من مماليكه إلى السلطان وهناك يتم اختبارهم على أيدى أساتذة كبار، إذا كان قد تم اعتناقهم الدين الجديد، ويأخذهم السلطان ويمنح معلميهم الهدايا والمكافآت[٩٢].

واذا كانت المصادر العربية أمدتنا بمعلومات مهمة عن نشأة وتربية المماليك، فقد أشارت إلى اهتمام سلاطين المماليك بتربية وتثقيف وتعليم مماليكهم فنون الحرب والقتال في مدارس خاصة بقلعة الجبل عرفت باسم طباق أو أطباق مفردها طبقة[٩٣] خاصة وأن هؤلاء كانوا

---

(٩١) السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٨٤؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٦، ص ١٣، ٦٩، ٧٣، ١٦٥، ٦٦٦.

(٩٢) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 16.

يعرف الجيش المملوكى فى المصادر المملوكية بالعسكر السلطانية أو بعسكر السلطان . ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٩، ص ٢٧٠ ؛ ابن خلدون، كتاب العبر، القاهرة ١٢٨٤هـ، جـ٥، ص ٤٩٦ ؛ أما القوات المرابطة بالأراضى المصرية فكانت تعرف باسم العسكر المصرى أو العساكر المصرية . ابن الفرات، جـ٧، ص ٤١ ؛ جـ٨، ص ٢٢٣، جـ٩، ص ٦٤ ؛ تمييزاً لها عن تلك التى كانت توجد فى بلاد الشام وتعرف بالعساكر الشامية . زتيرشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ليدن ١٩١٩م، ص ٦٠، ٨٠؛ أبو الفداء، المختصر، جـ٤، ص ٢١، ٢٢، ٢٣ ؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٩ ؛ ومن المعروف أن القوات المرابطة بالأراضى المصرية كانت تتألف من ثلاث طوائف رئيسية .

D. Ayalon, "Studies in the Structur of Mamluk Army," I-III, *BSOAS*, XVI/1 (1954), p. 204.

المماليك السلطانية وتشتمل على مماليك السلطان الذى فى دست السلطنة الذين أطلقت عليهم المصادر التاريخية اسم المشتروات . ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٦٨ ؛ جـ٤، ص ٢٤١ ؛ والطائفة الثانية من طوائف الجيش المملوكى فى مصر هى مماليك الأمراء الذين يعرفون أيضاً بأجناد الأمراء . ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ٢٦١ ؛ زتيرشتين، تاريخ المماليك، ص ١٣٢، ١٦٣، ١٦٨، ١٧٠، المقريزى، السلوك، جـ٢، ص ١٧٦ ؛ أما الطائفة الثالثة والأخيرة فهى أجناد الحلقة وكانت تتألف من محترفى الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم . عن الحلقة انظر :

Ayalon, *The Mamluk Army*, II, pp. 448 – 459; A. N. Poliak, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon (1250 – 1900)* (London 1939), pp. 5-10.

(٩٣) العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٩٨–٩٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٦، ص ٧٥٨، جـ٧، ص ٢٥، ١٢٣، ١٣٩؛ حوادث الدهور، ص ١٩١، ٢٢٣، ٢٥٠، ٤٩٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٦٧؛ جـ٤، ص ٤، ١٢٧، ٢٠٩؛ جـ٥، ص ١٤. اهتم سلاطين المماليك بتربية وتثقيف وتعليم مماليكهم فنون الحرب

يجلبون صغار السن، وكانوا يعتبرون بمثابة عضو الجيش المملوكي حيث يرسل السلطان مشترياته من المماليك إلى الطباق وينزل كل منهم في طبقة جنسه[٩٤].

أما عن طريقة وأسلوب تربية هؤلاء المماليك في الطباق فيفهم من المقريزى أنه "كان للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة، أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان، ونزله في طبقة جنسه، وسلمه لطواشى برسم الكتابة. فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم. وكانت لكل طائفة فقيه يحضر إليها كل يوم، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط، والتحلى بآداب الشريعة، وملازمة الصلوات والأذكار، فإذا شب الواحد من المماليك، علمه الفقيه شيئاً من الفقه وأقرأه فيه مقدمة، فإذا صار إلى سن البلوغ، أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمى السهام ولعب الرمح، ونحو ذلك [٩٥].

أما فيما يتعلق بالتعليم الحربى في الطباق، فقد كان يبدأ عندما يصل المملوك إلى سن البلوغ حين يأخذ في التدرب على فنون الفروسية في الطباق التي شملت المهارة في ركوب الخيل، واللعب بالرمح، الحذق في الرمى، والضرب بالسيف، ودوران المحمل، ولعب الصولجان، والمران على المصارعة، وسباق الخيل[٩٦]. ويفهم من بعض المؤلفات في الفنون الحربية أن عماد الفروسية أربعة أشياء أولها ركوب الخيل والكر والفر، وثانيهما الرمى بالقوس، وثالثها الطعن بالرماح، ورابعها الضرب بالسيف[٩٧]، ومن يستكمل ذلك، يكون قد استكمل الفروسية[٩٨].

والقتال فى مدارس خاصة بقلعة الجبل عرفت باسم طباق أو أطباق مفردها طبقة أو طبق، خاصة وأن هؤلاء كانوا يجلبون صغار السن، وكانوا يعتبرون بمثابة عضد الجيش المملوكى حيث يرسل السلطان مشترياته من مماليك إلى الطباق وينزل كل منهم فى طبقة جنسه . انظر: العمرى، التعريف، ص ٩٨ – ٩٩ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٦٧، جـ٤، ص ١٤، ١٢٧، جـ٥، ص ١٤ ؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢١٣ .

[٩٤] المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢١٣؛ الباز العرينى، المماليك، ص ٨٥، ٨٩، ١١٠، ١١٧ ؛ أحمد عبد الرازق، الجيش المصرى، ص ٤٠ وما بعدها ؛انظر أيضاً :

Ayalon, *L' esclavage*, pp. 11 – 12 – 19.

[٩٥] القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٨.انظر أيضاً : المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٠٤ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٧، ص ٣١٥؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٠، ص ١٥٣. قارن: أحمد عبد الرازق، المرأة في مصر المملوكية، القاهرة ١٩٧٥م، ص ١٠٢؛ أحمد عبد الرازق، الجيش المصري في العصر المملوكى (القاهرة ١٩٩٨م)، ص ٤١-٤٣.

[٩٦] ابن تغرى بردى، النجوم، طبعة بوير، جـ٦، ص ١٣٠؛ جـ٧، ص ٨٤٤؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٣٤، ٤١، ٣٠٨، ٣٠٩.

[٩٧] حسن الرماح، الفروسية والمناصب الحربية، تحقيق عيد ضيف العبادى (بغداد ١٩٨٤م)، ص ١٠١؛ ابن القيم الجوزية، الفروسية، نشر السيد عزت العطار (القاهرة ١٩٤٢م)، ص ٢١.

تحدث بيلوتي الكريتي أيضاً عن تقدمة المماليك وعملهم، فيذكر أنه في شهر أغسطس من كل عام عندما كانت القاهرة تحتفل بفيضان النيل وينقل المماليك الصغار من الطباق ويتم اصطحابهم إلى فناء كبير بالقصر ويقفون بشكل منظم، ثم يقوم السلطان بصحبة ثلاثة من كبار الأمراء بتفقد مماليكه، ويختار بعضهم ممن تتوافر فيهم المهارة والقدرة على الفروسية، ويخرج من بين أصحابه ويقف في وسط الفناء، وبعد أن يتم فحصه يصدر أحد المماليك أمراً بعودة باقى المماليك إلى الطباق، ونظراً لتأخر الوقت، يبقى المماليك في تلك الليلة في نفس الساحة وفى الصباح يجلس السلطان في مكانه المعتاد، ثم يتقدم المماليك، وتكتب أسماؤهم، ويخصص بعض النقود والخيلشهرياً إلى جانب وبعض اللحم والشعير يومياً، وبعد أن تنتهي الكتابة يسمح لهم بالخروج من القصر والذهاب للمدينة للبحث عن أماكن للعيش، ويمتطون خيولهم إلى القصر السلطاني ثلاث مرات في الأسبوع برماحهم ودون السيوف، حيث ينقسموا إلى قسمين؛ ويقوم اثنان اثنان بالمبارزة بالرماح، وبعد أن يلتقى الاثنان الأوليان يقومان بالتلامس بين سهام الرمح. وهكذا تبدأ المبارزة ويجلس السلطان عند طرف الساحة للاستمتاع بالمشاهدة،وحين يثبت أحدهما كفاءته بالرمح يمنحه السلطان عشرين فرساً وأكثر تبعاً لدرجة استمتاع السلطان. ومن الممكن أن يمنحه إيراد إحدى القرى ونفقات الخيل، وكلما رأى مدى شجاعة الفارس يزيد عدد الخيل والقرى وما بها من خيل ومماليك. وبهذه الطريقة يشجع السلطان على ازدياد كفاءة المماليك وشجاعتهم وحكمتهم حتى يصبحوا قواداً يملكون أكثر من ثلاثمائة جواد[٩٩].

بيلوتى الكريتي والحياة الاقتصادية في مصر:

لم تكن القاهرة على حال ثابت من الهدوء والسكينة في العصر المملوكي، بل كثيراً ما تأثرت المدينة بعوامل سياسية واقتصادية أدت إلى زعزعة الحالة في الأسواق وإثارة القلاقل في النفوس، مما يترتب عليه تعطيل الحركة وإغلاق الحوانيت بين حين وآخر. وقد عدد المقريزي العوامل الرئيسية التي أدت إلى التدهور الاقتصادي في عصره، فكان أولها زيف النقود المتداولة بين الناس؛ ذلك أن بعض السلاطين أكثروا من ضرب الفلوس، واختلفوا في تقديرها بالوزن، فحينا يكون الرطل منها بستة دراهم، وأحياناً بإثنى عشر درهماً أو بدرهمين ونصف. وفي جميع هذه الأحوال أرغم التجار والأهالي على التعامل بها وفق القيمة التي تحددها الحكومة، مما

---

[٩٨] محمود نديم، الفن الحربى للجيش المصري في العصر المملوكي البحرى (القاهرة ١٩٨٣م)، ص ٣٥.

[٩٩] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinziéme siècle*, pp. 17 - 18.

آن وولف، كم تبعد القاهرة ؟ ص ٥٧.

يضطر كثيرون إلى إغلاق حوانيتهم خوفاً من بخس بضائعهم، ويصحب هذه الحالة ارتفاع الأسعار وقلة الخبز[١٠٠]، فيزاحم العامة على الحوانيت "جرياً على عاداتهم في مثل ذلك"[١٠١].

ومن عوامل التدهور الاقتصادي كذلك كثرة المنازعات والفتن بين أمراء المماليك وأحزابهم. فكثيراً ما قام المماليك بثورات "**فيوالون الاجتماعات الليلية وتأسيس العصابات السرية للهيجان**"[١٠٢]، ثم ينتشرون في الطرقات والأسواق لنهب الحوانيت وخطف العمائم وانتزاع الخيول الخيول من أصحابها، بل أحياناً يهجمون على النساء في بيوتهن وفى الحمامات فيخطفوهن[١٠٣]. وفى هذه الأحوال يغلق التجار حوانيتهم ويسرعون إلى منازلهم، كما تغلق الأبواب التي تفصل بين أحياء المدينة ودروبها. وربما استمر الحال على ذلك أسبوعاً يقاسى الناس طواله أنواع الجوع والفوضى والفزع[١٠٤]. وكان يكفى أن يرجف بموت ذلك[١٠٥] أو هزيمة جنوده[١٠٦] حتى تضطرب أحوال القاهرة على الوجه السابق. هذا كله بالإضافة إلى العامل الطبيعى المرتبط بانخفاض فيضان النيل في بعض السنوات وما كان يترتب على ذلك من نقص الأقوات وارتفاع الأسعار وانتشار الأوبئة[١٠٧].

وقد وصف بيلوتي الكريتي اتساع مدينة القاهرة وكثافة سكانها فقال: "**أنها أكبر مدينة في الدنيا، وهى إحدى المدن السبع الكبرى، يقطنها أناس لا حصر لهم، لدرجة أنهم ينامون مكشوفين في الشوارع وبأعداد ضخمة يصعب تصديقها**"[١٠٨].

أ. الري والزراعة:

---

[١٠٠] المقريزى، إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٤٠م)، ص ٤٧ وما بعدها؛ السلوك، جـ٢، ص ١٧، جـ٣، ص ٨٢-٨٣؛ انظر أيضاً : سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (القاهرة ١٩٦٢)، ص ٨٨.

[١٠١] السخاوى، التبر المسبوك في ذيل السلوك (القاهرة ١٨٩٦)، ص ٢٦٠.

[١٠٢] سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٨٩.

[١٠٣] المقريزى، السلوك، جـ٣، ص ١٦٤.

[١٠٤] M. Clerget, *Le Caire*, 2 vols. (Le Caire 1834), I, 151.

[١٠٥] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٣٥؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٨٩.

[١٠٦] ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ٤٠١ .

[١٠٧] المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٥٠٧-٥٠٨؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٨٩ .

[١٠٨] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 3-4.

تحدث بيلوتي الكريتي عن ري البلاد ووصف طريقة الري والزراعة لدى الفلاحين المصريين في ذلك العصر، وكيف أنهم يفتحون سدود الترع التي تعين عليها الحراس في أوقات الفيضان في جماعات، عدد كل منها عشرة مماليك ومهمتهم حراسة المصاب المعروفة، وذكر أنه بعد فتح السدود تصير الأرض كأنها بحر حقيقي، وتصبح القرى في الوسط كأنها جزائر يتم التنقل بينها بالقوارب، وحين تجف الأرض يتم بذر الحب بطريقة بدائية. ويقول بيلوتى: "**حين يصل النهر إلى ارتفاعه الأقصى المعتاد، يتفرع النيل إلى فرعين دمياط ورشيد ليصبا في البحر، وعندما يرتفع منسوب مياه النهر يقف الحراس من المماليك على ضفافه محيطين به، ومهمتهم هي فتح المداخل المعتادة لإدخال المياه إلى القرى، وتنتشر المياه لتغمر البلاد وتبدو كبحر واسع وتظل القرى في الوسط كما لو كانت منعزلة، وفى الليل يقوم المماليك عند صدور بعض الإشارات الضوئية، وبعد أن تغمر المياه البلاد تغلق المداخل، ومع مرور الوقت تجف المياه وتظل الأراضي مروية، ويبدأ الفلاحون الزراعة ليقوموا بالحصاد في فصل الصيف، وليس لديهم سوى هذا الماء ليروى منه،وفى الشتاء يتساقط الندى ليلاً، ويكون الطقس لطيفاً نهاراً، ويستطيع كل من يريد بناء دار في القرية أن يأخذ من الأرض لبناء داره، وبذلك نجد كل قرية لديها خندق كبير أكبر من أى ساحة بالمدينة. وفى الأوقات التي تجرى فيها المياه في البلاد تغمرها، وتمتلئ هذه القنوات بالمياه لتستفيد منها القرى ويشرب منها الحيوانات وتظل طوال العام مملوءة أو شبه مملوءة بالمياه، ولا توجد مياه عذبة في أرض مصر كلها إلا من هذا النهر**"[١٠٩].

أما عن الري في منطقة الغربية، يوجد في هذه المدينة من ناحية دمياط وكذلك رشيد على الضفاف ألف زوج من الأبقار على الأقل، في كل جهة مقيدين بحبال لسحب المياه من النهر وإلقائها في الحقول لريها، وبذلك تستفيد البلاد مع عدم وجود أمطار وعدم جريان المياه في الحقول إلا مرة واحدة عند فيضان النيل[١١٠].

وفيما يتعلق بالخضروات والفاكهة، وتؤكل ثمار البلاد قبل حصادها وخاصة الخيار والرمان والتين والعنب بكميات كبيرة، وتأتي هذه الثمار من على بعد ٢٥ ميلا من القاهرة، وهناك فاكهة الموز[١١١] ذات المذاق الطيب والتى تنمو بكثرة في دمياط وتظل موجودة طوال العام وفي

---

(١٠٩) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 19 - 21.

(١١٠) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 28.

(١١١) لم يكن الموز معروفاً في أوربا في العصور الوسطى، ولذلك كان يثير إعجاب السائحين في مصر .
Dopp, *L'Egypte au commencement du quinziéme siècle*, p. 24.

القاهرة والإسكندرية حيث تباع. وتوجد مدينة تبعد عن القاهرة بحوالى ١٨ ميلاً عن طريق النهر تسمى شطانوف وبها البذور التي تأتي من الإسكندرية عبر فرع رشيد، وكذلك تلك التي تأتي من دمياط مع بضائع أخرى خاصة بالمدينة، وفى هذا المكان عند القاهرة يتفرع النهر فرعين أحدهما يتجه إلى رشيد على بعد ٢٥ ميلاً من الإسكندرية والآخر عند دمياط ويصب في البحر وبينهما تقع الغربية في الوسط، وهى محاطة لـ ٢٢٢ ميلاً حيث أنه منذ بداية ذلك الجزء من النهر حتى فرع دمياط ١٠٠ ميلاً ،ومن فرع رشيد حتى فرع دمياط بحراً أو براً ١٧٥ ميلاً . ومن فرع دمياط عبر طريق النهر حتى مدينة شطانوف ١٠٠ ميلاً أخرى(١١٢).

وتعد هذه المدينة من أكبر مدن العالم، يعيش بها عدد كبير من الناس، حيث يوجد بها حوالي ٤٠٠ قرية، يعيش بكل منها من مائة إلى اربعمائة أسرة أو أكثر، وبها أشخاص من مختلف الجنسيات، يأتى إليها الجميع بأمتعتهم كتجار مرتحلين وفى هذه المنطقة ينمو قصب السكر والقطن ويأتي الصوف منها بكميات كبيرة، كما يزرع بها السمسم بكميات ضخمة من أجل استخراج الزيت، ويوجد كذلك الأرز والقمح والبازلاء والفول، كما يوجد بهذه المدينة أيضاً كافة أنواع الحيوانات من الخيول والأبقار والجمال والنعاج والماعز، بالإضافة إلى أنواع أخرى مثل الأوز، ويصنع بها الجبن من ألبان الجاموس ويحمل إلى القاهرة. كما توجد بها أنواع عديدة من الفاكهة مثل الخوخ والرمان والتين والموز والخيار والبرتقال والليمون، ويتم تناول هذه الثمار خضراء ولا تبقى طويلاً لكثرة أعداد السكان، وتوجد كل أشكال الثمار بأعداد كبيرة، وهناك العديد من الأسواق التي تتميز بكثرة ما بها من نعم الله وما يتبقى بها يذهب للقاهرة، ولا يلزمها أكثر مما يلزم المدن الأخرى من العيش(١١٣).

وقد تحدث بيلوتي الكريتي عن نبات الكتان في مصر العليا (أو الصعيد) بقوله: "... هى المنطقة السفلى من مصر وتحديداً بعد مدينة القاهرة وحتى الجنوب ويتخلل تلك المنطقة العديد من المدن وفى أراضيها تتم زراعة الحنطة والفول وشتى أنواع الخضروات، وكذلك كميات كبيرة من الكتان، ثم يعود ويخبرنا بأن محصول الكتان يسجل أعلى معدلات النمو في كل عام. ومن ناحية أخرى يشير إلى مميزات كتان مصر العليا بأنه أكثر ليونة ونعومة من أي كتان آخر في العالم، مما يساعد على تحصيل مبالغ كبيرة من الذهب في كل عام ويرجع السبب إلى أن جميع سكان

---

(١١٢) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 24.

(١١٣) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 24-25.

البلاد يرتدون الملابس المصنوعة من نسيج الكتان الأبيض، وكذلك يتم تصديره بكميات كبيرة عن طريق شحنه على المراكب إلى بلاد البربر والشام ودمشق وتركيا(١١٤).

وتناول بيلوتي الكريتي موقع مدينة القاهرة وذكر أنها تقع على شاطئ النيل الذي يقال أنه ينبع من الجنة كما سبق القول، يعيش الناس على مائه وحصاده وسمكه وفواكهه .." وعليه تقوم الزراعة وتربى فيه الأسماك، ومررنا عبر الأراضي المزروعة والتى تغطيها مياه النهر، وبعد هذه الأراضي تبدو صحراء جرداء لا تحتوي إلا على الرمال القاحلة، فلا يوجد زرع أو نبات أو أية مياه وبالتالي لا يسكنها أحد. وبعد مضى عدة ليال من السير في هذه الصحراء وصلنا إلى الحدود السورية(١١٥).

وأشار بيلوتي الكريتي أيضاً إلى رخاء القاهرة وارجعه إلى عاملين أساسيين هما خصوبة التربة والتجارة، وتتمتع مدينة القاهرة برخاء أكبر من أي مدينة أخرى في العالم ورخاؤها يكمن في مصدرين أولاً جودة كافة أراضيها وصولاً إلى قلب صحراء الجانب الشرقي كما سبق القول، أما شاطئ البحر المتوسط فلا يوجد فيه أي أراضي صحراوية وذلك نظراً لتوافر المياه فيه، وتغطيتها لكافة جوانبه، فضلاً عن إنتاجها الغزير للعديد من المحاصيل المتنوعة، وبهذا يتوافر الغذاء والمؤن للسكان مع جميع متطلبات الحياة. وتناول بيلوتي أيضاً منتجات الأرض ويأتي في المقام الأول إنتاح الحنطة والقمح بكميات كبيرة، ثم البقول كالفول والعدس،ونظراً لكثرة عدد السكان نجدهم يستهلكون كميات كبيرة من هذه المنتجات،وكثيراً ما كان يحدث أن تمر بلاد الشام بخسائر في محصول القمح، فتقدم لها مصر يد العون، عن طريق إرسال القمح والليمون(١١٦).

ب. إنتاج الأسماك:

ولا نغفل إشارة بيلوتي الكريتي إلى الأسماك(١١٧) الطازجة التي يقومون بصيدها من خلال قيامهم بالرحلات النيلية(١١٨).

---

(١١٤) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 35.

(١١٥) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 3 - 4.

(١١٦) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 4 - 5.

(١١٧) عن الأسماك بصفة عامة انظر: الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة ١٣٥٧هـ)، ص ٢٣٣؛ جـ٤، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة ١٣٥٩هـ)، ص ١٥٧؛ وانظر كذلك:
E. S. Herold, *Living Fishes of the World* (New York 1961).
وكذلك محمد مؤنس عوض، الأسماك في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية – دراسة في التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد الثانى عشر مارس (القاهرة ٢٠٠٣م) ؛

ويبدو واضحاً أن المصادر المملوكية وكتب الرحالة قد لاحظت ازدهار الثروة السمكية؛ فأشارت إلى العديد من مصايد الأسماك والتى أمكن تقسيمها إلى مصايد موسمية، ومصايد دائمة، ومصايد خاصة، فبالنسبة للنوع الأول كان يزدهر وقت الفيضان نظراً لسهولة عمليات الصيد، لذا عد من مصادر الثروة السمكية المؤقتة إبان ذلك العصر، وإن اقتصرت فائدته بدرجة كبيرة على الأهالى الذين كانوا ينعمون بالأسماك دون تدخل من قبل الدولة. ويمدنا النويري بوصف لهذا النوع قائلاً : "**عند هبوط نيل مصر ورجوع الماء من المزارع إلى بحر النيل، والعادة في ذلك إذا انتهت زيادة النيل وشرع الماء في مبادئ النقص وسدوا أفواه الترع، وسدوا أبواب القناطر التي عليها حتى يرجع الماء، ويتكاثف مما يلى المزارع، ثم ينصبون الشباك، ويصرفون المياه فيأتى السمك وقد اندفع مع الماء الجارى، فيجد الشباك تحول بينه وبين الانحدار مع الماء فيجتمع فيها، ثم يخرج منها إلى البر**"[١١٩]، فيضعونه على أنخاخ[١٢٠] وملح ويوضع في الأمطار، فإذا استوى بيع وقيل له الملوحة"[١٢١].

هذا ولفتت تلك الطريقة أنظار الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر، فأشار إليها بنيامين التطيلي الذي زار مصر أوائل القرن ٧هـ/١٣م باعتبارها من العمليات التي تؤدي إلى كثرة الأسماك بالديار المصرية[١٢٢]. وقد كان الخط الساحلي من مدينة تنيس إلى الإسكندرية الأكثر ثراء في الثروة السمكية؛ وقد لفت هذا الخط الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر خلال تلك الفترة فأشاروا بالفعل إلى وجود بحيرتين كبيرتين على ساحل البحر المتوسط فيما بين دمياط ورشيد كثيرتا الأسماك، ويستخرجونها منهما بكميات هائلة، حيث يتم حفظها في كميات كبيرة من الملح، ثم يصدرونها إلى بلاد الشام وقبرص ورودس والقاهرة[١٢٣].

---

(١١٨) C. E. Bond, *Biology of fishes* (Philadelphia 1979); J.S. Nelson, *Fishes of the World*, (New York 1970); J. R. Norman, *A History of Fishes* (London 1958).
Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 5.

(١١٩) النويرى، نهاية الأرب في فنون الأدب، عدة أجزاء، القاهرة، ١٩٢٣-١٩٩٢م، جـ٨، ص ٢٦٣؛ مجدى عبد الرشيد، القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م (القاهرة ١٩٩٢م)، ص ٢٣٥؛ انظر أيضاً : سند أحمد عبد الفتاح، الأسماك ومصايدها في مصر المملوكية ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧، مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد الثالث والعشرون (القاهرة ٢٠٠٨م)، ص ٣٥٠.

(١٢٠) الانخاخ جمع نخ بتشديد الخاء؛ وهو بساط طويل وقد شاع إطلاقه في مصر على الحصير الذي يتخذ من البردى. انظر: النويرى، نهاية الأرب، جـ٨، ص ٢٦٣، هـ ٦.

(١٢١) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ١٧٣.انظر أيضاً : سند أحمد، الأسماك ومصايدها، ص ٣٥٠ .

(١٢٢) بنيامين التطيلى، رحلة بنيامين التطيلى، ترجمة عزرا حداد (بغداد ١٩٣٤م)، ص ٧٤.

(١٢٣) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 5.

وقد أسهب كتاب عصر سلاطين المماليك في الحديث عن الأسماك والحيوانات المائية التي تواجدت في نهر النيل، واعتبروا بعضها من العجائب. [١٢٤] وقد أشار الرحالة بيلوتي بيلوتي الكريتي إلى أن مدينة دمياط كثيرة الأسماك، ومعظم أهلها من الصيادين الذين يحترفون مهنة الصيد، ويبيعونها لكبار تجار الأسماك بأسعار زهيدة، وهؤلاء يقومون بشحنها إلى كثير من الدول الإسلامية والأوربية؛ وهو ما يوضح لنا مدى تحكم كبار التجار في تجارة السمك في غيبة من رقابة الدولة على ذلك النوع من الصيد باعتباره مشاعاً لعامة الناس، بل وللسلطان الحق في ضم بعض مصايد السمك الدائمة في أملاكه الخاصة، وحذا حذوه كبار الأمراء[١٢٥] .

ج. الثروة الحيوانية:

وفيما يتعلق بالثروة الحيوانية، فقد تحدث بيلوتي الكريتي عن امتلاك المصريين لكميات كبيرة من الأبقار والجاموس والماعز وغيرها من الحيوانات، ولديهم من الطيور كميات غير محدودة، ولها أسواق كبيرة ويرجع ذلك إلى الطريقة العجيبة التي يتم بها عملية التفريخ . فقد أشار بيلوتي الكريتي إلى تجارة الدجاج في القاهرة والأفران المخصصة لفقس البيض بقوله: "**وجد**

---

[١٢٤] من هذه الحيوانات المائية التمساح فذكروا أنه لا يوجد إلا بنهر النيل ونهر مهران فقط وكان ذلك دليلا لديهم على أن النهرين يخرجان من منبع واحد، كما تحدثوا في كتاباتهم عن سقنقور (وهو –وفقاً لأوصافه التي أوردوها – حيوان مائى يتواجد في منطقة أسوان والنوبة شبيه بالتمساح وهو من نسله إذا وضعه في الماء فإذا اتجه إلى البر صار سقنقورا، وإن اتجه إلى مياه النهر صار تمساحاً). ومن بين أسماك النيل التي ذكرها كتاب عصر المماليك سمكة اسمها "الرعادة" تصيب من يلمسها بالرعشة، ولذا يعمد الصيادون إلى إخراجها من شباكهم فور اصطيادها، كما وصفوا فرس النهر، وزعموا أن سمكة تعيش في نهر النيل وهى شبيهة بإنسان ذى لحية طويلة وأطلقوا على تلك السمكة المزعومة اسم "شيخ البحر" وهى سمكة مشئومة إذا ظهرت في مكان أعقب ظهورها القحط والموت والفتن .." (انظر قاسم عبده، النيل والمجتمع المصرى، ص ١٠٨ – ١٠٩.) أما التماسيح فقد لفت انتباه الرحالة الأوربيين لكثرته بنهر النيل، وأطلقوا عليها اسم السحلية ولكنها كبيرة الحجم أو تشبه التنين وبلغ طوله من ٦ إلى ٨ أذرع، وظهره خشن وعلى جلده قشور سميكة وذو فم كبير، ولا يستطيع المرء اصطياده بسهولة. لمزيد من التفاصيل انظر المقريزى، الخطط، جـ١، ص ١٠٨؛ السيوطى، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة ١٩٩٨م)، جـ٢، ص ٣١٨؛

Souriano, F., *Treaties on the Holy Land*, trans. by Fr. Theophilus Bellorini, (Jerusalem 1948), p. 53; Frescobaldi, Gucci Sigoli, *Visit to the Holy Places*, trans. by Theophilus Bellorini (Jerusalem 1948), p. 43; Langnon, B., *Le Saint voyage de Jerusalem de Seigner de Angleur* (Paris 1978), p. 75; Adler, E. N., *Jewish Travelers* (London 1930), p. 223; Harff, *The Pilgrimage of Arnold von Harff*, trans. by Letts Malcolm (London 1946), p. 98.

[١٢٥] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 5.

بين القاهرة ومدينة بابليون إضافة إلى انتشارها في بلبيس و الإسكندرية والغربية[١٢٦] عدد من الأفران على شكل الأفران التي نقوم نحن بصنعها من حيث أننا نستخدمها لطهو الطعام عن طريق وضعه داخل أوعية فخارجية أو زجاجية بدلاً من وضع أوعية الطهى أعلى النار، ثم نقوم بإدخالها في الأفران .. فكانوا يضعون (أي في القاهرة) أعدادا كبيرة من البيض قد تصل إلى الآلاف، يجلبونها من كل أنحاء البلاد ثم يقومون بتغطيتها بطبقة من روث الحيوانات، وبدلاً من وضع النيران تحتها، يتم وضعها في عمق الأفران، ويملؤها بروث هذه الحيوانات، وعلى فوهة كل فرن يوجد باب صغير صنع من الحديد؛ بالإضافة إلى ذلك كانوا يضعون داخل الأفران حربة أو رمح يستخدم لتقليب هذا الروث ليلاً ونهاراً ولا يغفلون عنه لحظة، ومن خلال هذه العملية يتولد في الروث كمية كبيرة من الحرارة تنفذ إلى البيض المدفون في قاع الأفران، وخلال أيام قليلة يفقس كل البيض وتخرج الكتاكيت الصغيرة، وفى تلك اللحظة يقوم شخص من القائمين على هذا العمل قائلاً : "انتهى فقس البيض في هذا الفرن، وغداً يتم تفريخه. وبعد ذلك يبدأ الأشخاص في شراء أي كمية من هذه الكتاكيت، ويتوافد أعداد كبيرة من الرجال والنساء خاصة الذين يتعيشون من هذه المهنة، ويشترون بالمكيال ما يريدونه وليس بالعدد، والمكيال يستخدم لوزن السوائل والحبوب وغيرها، وهو مستطيل الشكل، غير عميق يوضع فيه كمية من الكتاكيت بدون عدد ويتم بيعها بعد ذلك، وبفضل وجود هذه الأفران، تمتلك مصر كميات ضخمة كبيرة من الطيور"[١٢٧].

ويشير بيلوتي الكريتي إلى أن هذه الأفران الصغيرة تباع في شوارع القاهرة بنفس الطريقة، ويجلس أحد الأشخاص ويضع أمامه كمية من الدجاج يبلغ عددها ثلاثة أو أربعة آلاف دجاجة مثلما يحدث لدينا في تجارة الأوز، ويقوم ببيعها للناس، ومن يقوم بشراء هذه الطيور يبيعها مرة ثانية أمام منزله، ومن ناحية أخرى كان يعرض على حارس القطيع شراء كمية من الكتاكيت، ويذهب لمعاونتهم، وإذا حدث اتفاق بين صاحب الكتاكيت الصغيرة والحارس كان الأول يقوم بتشوين الكتاكيت في أقفاص ويصدرها للطرف الثانى وهكذا تتم عملية البيع والشراء، وتزدحم شوارع القاهرة بالناس، سواء كانوا مترجلين أو ممتطين الخيول، وكان الزحام يشتد في ظل وجود هذه الأقفاص، وفى بعض الأحيان كانت هذه الأقفاص تتبعثر في الشارع، والحارس لا يتحرك من مكانه إلا بعد أن يعود الهدوء ويهدأ ضغط الزحام، وبعدها يتحرك لجمع ما تفرق.

---

(١٢٦) M. Baumgarten, *The Travel of Martin Baumgarten through Egypt, Syria, Palestine* (London n.d.), p. 465; T. Wright, *Early Travelers in Palestine* (London 1948), p. 152; Schefer, *Le voyage de Jean Thenaud*, p. 211.

(١٢٧) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 38 - 39.

ويعلق بيلوتي الكريتي على ذلك بقوله: "**والجميل هنا هو أنه لا يفقد أياً من هذه الأقفاص بل يستردها بالكامل .. أما أنا فمتعتي كانت في الذهاب لمشاهدة هذه الأحداث ...**" [١٢٨]

وتحدث الحسن الوزان بقوله: "بأن هؤلاء الناس لهم أسلوب مدهش لتفقيس الفراخ، وهم يأخذون ألف بيضة أو أكثر،ويضعونها جميعاً في فرن ذى طابقين ومزود بصفوف طويلة صممت وكأنها معالف للحيوانات،ويكون الطابق العلوى مثقوباً بفتحة ويوقدون نار هادئة تحت هذه الأجهزة، على أن يغطى البيض بالتبن وقش الأرز، وبعد سبعة أيام تبدأ الفراخ بالتفقيس بأعداد كبيرة، وتجمع هذه الفراخ في أوعية كبيرة"[١٢٩].

فضلاً عن ذلك فقد لفتت طريقة التفريخ الصناعي أنظار كثير من الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر إبان تلك الفترة، فقد أشار الرحالة جون ماندفيل[١٣٠] إلى أن "النساء قد اعتدن أن يحضرن إلى تلك المعامل ما لديهن من بيض الدجاج والبط والأوز حيث يوضع ذلك البيض في أفران خاصة يعملون على جعلها دائماً موقدة، حيث يقومون بتغطية البيض بروث البهائم، ثم تحضر النساء بعد ثلاثة أسابيع أو شهر ويتسلمن الفراريج، ويقمن بتربيتها من جديد ثم يحضرن بيضها بعد ذلك لنفس الغرض، ولهذا فإن البلاد مليئة بالدجاج والأوز والبط[١٣١].

كما لفتت معامل التفريخ نظر الرحالة فليكس فابرى[١٣٢] الذي زار مصر عام ٨٨٨هـ/١٤٨٣م بصحبة مجموعة من الحجاج الألمان بيد أن الحظ لم يسعدهم لأن الوقت لم

---

[١٢٨] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 39 - 40.

[١٢٩] الحسن الوزان، وصف افريقيا، ص ٥٩٢ – ٥٩٣ .

[١٣٠] جون ماندفيل (٧٢٢ – ٧٥٧هـ / ١٣٢٢ – ١٣٥٦م)، رحالة انجليزى تجول وتعرض لمخاطر عديدة من أجل النزهة والتجول، سجل ما شاهدوه وما سمعوه،فجاء مؤلفه مليئاً بوصف المدن والقرى والقلاع= =والسهول والجبال والأنهار، وكتب عن الاقتصاد والسكان والحياة السياسية والتطور العمرانى للمدن والموانئ، وعادات وتقاليد الشعوب، ووضع مؤلفات إرشادية لمن يفكر فى السفر إلى الأراضى المقدسة . نقولا زيادة، رواد الشرق العربى، مجلة المقتطف، القاهرة ١٩٤٣م، ص ١١٧ – ١٢١ .

[١٣١] على السيد، القاهرة في عيون الرحالة الأوروبيين، مجلة فكر، العدد ١٣، (أكتوبر ١٩٨٨م)، ص ٧٥.
Sir John Mandeville, *The Travels of Sir John Mandeville* (New York 1985), p. 39.

[١٣٢] فليكس فابرى، راهب ألمانى دومنيكانى زار الشرق مرتين، الأولى كانت قصيرة، أما الثانية فكانت من عام ٨٨٦ – ٨٨٩هـ / ١٤٨١ – ١٤٨٤م، قطع على نفسه عهد لإخوانه الرهبان فى دير أولم بأن يسجل كل ما يشاهده تسجيلاً دقيقاً وواقعياً حول الأماكن المقدسة وعن كل ما نزل به فى رحلته، وأضاف بعض المعلومات عن الأماكن التى لم يزورها بل سمع أو قرأ عنها من روايات سابقة .
F. Fabri, Le Voyage en Egypte 1483, trad du Latin presenté et annote par J. Masson, 2 toms (Le Caire 1975).

يكن أوان التفريخ، فاعتمد في وصفه على أحد الشيوخ المسنين من المسلمين الذي أخبرهم بأن الوقت وقت راحة، وأنه في شهور الصيف فإن "النساء يحضرن البيض إلى ذلك المعمل، الذي كان يشترط فيه أنيكون جيداً وطرياً"[١٣٣]. كذلك أشار الرحالة أرنولدفون هارف[١٣٤] الذي زار مصر عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م إلى وجود العديد من معامل التفريخ، وذلك بوضع البيض في أفران ذات حرارة خاصة وبعد مدة تفقس الكتاكيت وتعرض للبيع[١٣٥].

د. الصناعة بالإسكندرية:

في مستهل حديثه عن الإسكندرية تحدث بيلوتي عن تدهور السلطة وسوء تصرف السلاطين في القاهرة، مما جعل من الإسكندرية المدخل والمفتاح لبلادهم مدينة مهجورة مهملة وغير مأهولة بالسكان، رغم أنها مدينة جميلة ومبانيها آية في الجمال ومزينة من الداخل بالرخام وغيرها من أعمال الزينة والزخرفة الأخرى، لكن رغم هجرة أهلها لها، رأيت واحدا من تلك المنازل

---

[١٣٣] كان هذا المعمل عبارة عن طابقين في الطابق العلوى يتم وضع البيض في فتحات صغيرة مستديرة الشكل، ويغطى جيداً بالروث، وفى الطابق السفلى من الفرن كان يوجد به النيران المتدرجة في الحرارة، بحيث يعمل كل من الروث والنيران مع حرارة جو البلاد على تفريخ ذلك البيض، وفى نهاية فترة تتراوح ما بين اثنى عشر يوماً إلى خمسة عشر يوماً تخرج الفراريج والتى كان يتم تسليمها لإحدى النساء المسنات لترعاها وتغذيها حيث كن يعشن على تلك المهنة وليس لديهم وسائل أخرى للعيش سوى تربية الأفراخ الصغيرة خلال تلك المرحلة الانتقالية، ثم تتم المناداة بأنه قد تم الفقس وسيتم تفريغ المعمل مما به في يوم محدد حيث تأتى النساء لتستلم ما لهن من الفراريج. انظر عبد اللطيف البغدادى، الإفادة والاعتبار، ص ٨٣؛ على السيد، القاهرة في عيون الرحالة، ص ٧٥-٧٦ ؛ G. Prescott, *Once to Sinia, The Farther Pilgrimage of Felix Fabri* (London 1957), pp. 146-147.

[١٣٤] أرنولد فون هارف، رحالة ألمانى، زار مصر فى عام ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م، اهتم بالنواحى الاقتصادية، فتحدث عن موانئ مصر وخاصة الاسكندرية، وأهمية ذلك للتجار البنادقة، وحجم البضائع الشرقية وأسعارها والكسب المادى التى حصلت عليه مصر والبندقية كوسيط تجارى بين مصر وأوربا، كما وصف ميناء الاسكندرية والتقاليد المتبعة فى استقبال المسافرين الوافدين إلى الميناء، كما تحدث عن الضريبة التى يدفعها التجار، كما تناول الصراعات بين أمراء المماليك من أجل الوصول إلى كرسى السلطنة . انظر :
A.V. Harff, *The Pilgrimage of Arnold von Harff*, trans by letts Malcolm (London, 1946).

[١٣٥] Harff, *The Pilgrimage*, p. 114.

جدير بالذكر أنه بدون تلك المعامل لم يكن من الممكن توفير كل الكميات اللازمة لسكان القاهرة وضواحيها من الدجاج والأوز وبقية الطيور؛ لذا نجد الفلاحين والرعاة في وقت طرح الفراريج يسوقون أكثر من ستة أو سبعة آلاف دجاجة لبيعها في الأسواق. انظر: Souriano, *Treaties on the Holy Land*, p. 192; Ghistele, Joos von, *Le voyage en Egypte (1442 – 1483),* trans. Bauwens Preaux (Bruxelles 1975), pp. 55-56; Ludolph von Suchem, *Description of the Holy Land and the Way Thither*, trans. A. Stewat (London 1895), p. 67 .

الرائعة ومجموعة قليلة من السكان، وفى الماضي كانت هذه المنازل تباع بأسعار مرتفعة، والآن فهى لا تساوي الكثير، وكل من يقوم بشرائها بهدف نزع الألواح الرخامية (الفسيفساء التي تم قطعها من حجارة متعددة الألوان على شكل مربعات ودوائر في نماذج جذابة، يستخرج من أرضيات المساكن ويُعاد تجميعه)، والأعمال الفاخرة المتواجدة على المنازل والقيام بإرسالها إلى القاهرة عن طريق البحر لكى يزين مباني القاهرة، ولهذا يمكن أن نطلق على الإسكندرية اسم الأرض المهجورة(١٣٦).

أما فيما يتعلق بمصانع الحرير والنسيج في الإسكندرية وانهيار هذه الصناعة، فقد ذكر بيلوتي الكريتي أنه طبقاً للمعلومات التي استطاع الحصول عليها من خلال الأشخاص الذين كانوا يعملون داخل العديد من آلاف مصانع الحرير والكتان في الاسكندرية، قد تدهورت هذه الصناعة ولم تعد الأرض مأهولة بالسكان فالعمل أصبح محدوداً ، وهناك يتم صناعة الملاءات الحريرية المستخدمة كفرش وزينة لبلاط السلطان في القاهرة(١٣٧).

وتشير المصادر التاريخية المعاصرة أنه في عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م كان عدد الأنوال أكثر من أربعة عشر ألف نول في مدينة الإسكندرية وانخفض العدد عام ٨٣٧هـ/١٤٣٣م إلى ثمانمائة فقط لأن الظلم وجور الحكام شتت البزازين في البلاد(١٣٨).

ولا نغفل المنتجات الطبيعية في ضواحي الاسكندرية، فتحيط بالمدينة العديد من الحدائق والبساتين، بالإضافة إلى الحدائق الملحقة بالقصور، وداخل هذه الحدائق يمكن مشاهدة كل أنواع الفاكهة مثل التين والعنب والتفاح وهي دائمة الخضرة، وفيها تتواجد الأعشاب على مدار العام وبكميات كبيرة،ويوجد كذلك الليمون بأعداد كبيرة أيضاً ، ومذاقه في مصر أفضل من أي ليمون آخر في العالم، ويتم تصديره بكميات كبيرة إلى البندقية والقسطنطينية، وكمياته داخل حدائق الإسكندرية ضخمة وكبيرة لدرجة أنه يباع بثمن بخس لكثرة الكميات، ويباع الليمون الموضوع مع الثمار المخللة في البرميل الواحد بسعر ثلاث أو أربع عملات ذهبية(١٣٩).

هـ. التجارة:

---

(١٣٦) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 36.

آن وولف، كم تبعد القاهرة، ص ١٢٠.

(١٣٧) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 36.

(١٣٨) ابن الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشى (القاهرة ١٩٧٤م)، جـ٣، ص ٢٧٩.

(١٣٩) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 37.

وفيما يتعلق بالتجارة البرية" تحدث بيلوتي الكريتي عن العامل الثاني في رخاء مدينة القاهرة فقال: "يرجع إلى امتلاك مدينة القاهرة لعدة طرق برية عديدة غير الطرق البحرية، فإليها يفد التجار من ساحل اليونان، حيث يأتون بشتى أنواع البضائع القيمة عالية الجودة، إلى القاهرة ومنها إلى الهند وأثيوبيا أكثر من اتجاههم إلى الجنوب . أما بالنسبة للتجار الهنود فهم يأتون بشتى أنواع البضائع غالية الثمن، وبكميات كبيرة من الذهب،وتشكل تجارتهم أيضاً ربحاً كبيراً . وكان أي تاجر يأتى إلى مصر من أي دولة أو مكان في العالم، لابد وأن يحضر لزيارة السلطان، من ناحية أخرى نجد أن حوالي نصف كمية البضائع المجلوبة معهم (أى التجار) تذهب للسلطان وأعوانه. ونظراً لموقع مدينة القاهرة الممتاز والذى من خلاله يستطيعون التوجه إلى أي مكان، فكان من الضروري زيادة العطايا للسلطان مع تلبية جميع رغباته هو ومعاونيه، وكذلك كل أبناء الطبقة العليا في هذه المدينة. وترجع الفائدة من حركة التجارة هذه ليس فقط من العطايا التي يتم منحها للسلطان المملوكي من قبل التجار، ولكن من الرسوم التجارية التي تعتبر بمثابة كنز لا يحصى ويتوافر كل عام[١٤٠].

أشار بيلوتي الكريتي أيضاً إلى التجارة البحرية بقوله: "أما حركة التجارة والنقل الأخرى التي تمتلكها مدينة القاهرة، فتأتي عن طريق البحر، فيحيط بالقاهرة بحران البحر الأحمر والبحر المتوسط، وهو البحر الذي يمر بأسبانيا وبجزيرتي صقلية وكريت، ويذهب حتى مدينة الإسكندرية التي هي المدخل والبوابة لمدينة القاهرة كما سبق القول. ويجرى مع النهر حتى الشام إلى طرابلس وبيروت أما النهر الآخر نهر الـ Levant فيأتى خارج محيط العالم، ويدخل ويتوغل داخل أراضي الخليج العربي، وهو يتبع السلطان أيضاً وإلى مكة يصل أكبر جزء من البضائع وبعدها يتم نقلها إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة، ويذهب التجار لبيع شتى أنواع البضائع اللازمة لأهالى المدينة، ويحملونها في قوافل، ونفس الشئ تفعله قوافل بحر الـ Levant، ومنهم يجلبون البضائع من البحر المتوسط، وبهذا الطريق، كانت القاهرة تحصل على كل لوازمها من البضائع وكذلك الهند وفارس التي كانتا تحصل على كل احتياجاتها بنفس الرحلة[١٤١].

---

(١٤٠) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 8 - 9.

(١٤١) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 9.

وفي هذا الصدد يقول بيلوتي أيضا عن حركة الملاحة التجارية في نهر النيل وفروعه: "**عند قرية شطانوف**[١٤٢] **تجتمع كل القوارب الآتية من فرع رشيد والتى تأتى من دمياط محملة بالبضائع وأشياء أخرى وعلى مدار العام نشاهد من جوانب الجزيرة (دلتا النيل) في كل يوم آلاف المراكب التي تسير في النهر محملة بالبضائع والمتجهة إلى القاهرة**"[١٤٣].

أما تجارة الغرب مع الشام والمنتجات المصدرة للغرب فلم يغفل بيلوتي أن يتحدث عن البضائع والسلع التي تنقل عبر البحر المتوسط من الإسكندرية إلى القاهرة ثم دمشق، ويلاحظ أن هذه السلع أغلبها يأتى بواسطة القوافل من مكة وتحمل على ظهور الجمال، وقد وصف واردات الأقمشة الصوفية من إقليم الفلاندرز وبرشلونة والبندقية، وبعدها يأتى العنبر والزعفران والفضة والأقمشة الصوفية الواردة من جزيرة قبرص والفراء المصنوع من جلود السنجاب[١٤٤] والسمور الأبيض وكذلك المرجان البحري غالي الثمن الذي يأتي أيضاً من قطالونيا وبرشلونة[١٤٥]، وتبلغ القطعة الواحدة مائة ألف من الدنانير الذهبية[١٤٦].

---

[١٤٢] هى من القرى القديمة الواقعة على رأس الخليج (أى فرع النيل) الذى ينزل إلى دمياط، وعندها ينقسم النيل إلى قسمين ينزلان إلى أسفل ويتصلان بالبحر، وهى مدينة حسنة . لمزيد من التفاصيل انظر : محمد رمزى، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ (القاهرة، ١٩٩٤م)، ق (٢)، جـ٢، ص ١٦٢ وما بعدها .

[١٤٣] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 20 - 21.

[١٤٤] السنجاب، حيوان أكبر من الفأر وشعره في غاية النعومة يتخذ من جلده الفراء يلبسه المتنعمون وهو شديد الحيل، إذا أبصر الأشعة صعد الشجرة العالية وفيها يأوى ومنها يأكل ويوجد كثير في بلاد الصقالبة والترك وهو سريع الحركة عن الإنسان، وأحسن جلوده الأزرق الأملس، الدميرى، حياة الحيوان الكبرى، ط٢، ١٨٩٥م؛ ومن ذيله فروة نفيسة كانت تستعمل لتزيين الملابس كالقماقم، المقريزى، السلوك، جـ٢، ق١، ص ٩٨؛ ماير، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتى، مراجعة عبد الرحمن فهمى، القاهرة ١٩٧٢م، ص ١٠٥.انظر أيضاً :
R. Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, 2 vols. (Leiden 1986), I, p. 634.

[١٤٥] كان يتم استخراج أفضل أنواع المرجان من الجزء الغربى من البحر المتوسط، أما أعلى نسبة في إنتاجه فتأتى من الشرق (الهند والصين)حيث كان الطلب على هذه السلع كبيراً، وكانت السفن تحمله أولاً إلى مصر وهناك يتسلمه تجار الشرق. انظر: Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 48.

[١٤٦] أعلن العديد من الشهود أن عملة فنسيا الذهبية كانت في بداية القرن الخامس عشر الميلادي العملة الذهبية الوحيدة في أوروبا التي كان يجرى التعامل بها في دول السلطان، أما العملة الذهبية دوكات فتم تداولها في القاهرة منذ عصر السلطان برقوق ١٣٨٢–١٣٩٨م، والوزن المنتظم والثابت لعملة البندقية جعل منها العملة المفضلة بالنسبة للعملات الذهبية المصرية، والتى كانت ذات وزن متغير، وأصبحت عملة متداولة في كل الشرق في الشام والحجاز واليمن. لمزيد من التفاصيل انظر:
Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 49.

أما بخصوص الرسوم الباهظة التي كان يفرضها السلطان الأشرف برسباي على البضائع في الإسكندرية وقدرة وقوة هذا السلطان: فقد تناول بيلوتي هذا الموضوع بقوله: "أيها السادة الأقباط أقول أن التجار الهنود الذين يفدون من بلاهم براً وبحراً ، وتحدوهم الأخطار والمصاعب من كل جانب، يشعرون بسعادة بالغة عندما تشملهم رعاية الله ورحمته ويصلون إلى الإسكندرية بأمان، كذلك الحال بالنسبة للتجار الوافدين من البحر المتوسط، فهم يأتون ويتحملون مخاطر البحر وخطر القراصنة، لكنهم في النهاية يصلون بأمان وبكامل بضائعهم ووقتها يتقابلون مع التجار الآخرين الوافدين من مختلف البلاد، وعند وصولهم يتم مقابلتهم بهذا السلطان الشرير يقصد (الأشرف برسباي) ويضع هذا السلطان يده على البضائع، وكان يفسد على التجار متعة المغامرة، ومن هذه البضائع أيضاً كان يستفيد المسلمون والنصارى على السواء، أما هؤلاء التجار فلا يسعهم عمل شئ بل يبقون صامتين متحلين بالصبر! أيها السادة الأقباط، نرغب نحن في معرفة إلى أى أمة ينتمى هذا السلطان الذي يطلقون عليه اسم "السيد الطبيعى" ويبدو أنه بدون هذا السلطان لا يستطيع أى مسيحي من أقباط البحر المتوسط ولا أي مسلم في المنطقة الحياة، فهذا السلطان يحكم ويأمر ويتشدد ويقود، ويقدم له جميع الأمراء وكبار رجال الدولة فروض الولاء والطاعة[١٤٧].

وفي معرض حديثه عن الإسكندرية قرر بيلوتي أن "... **أقباط البحر المتوسط يأتون إلى الإسكندرية حاملين ينابيع الذهب والفضة وكافة البضائع الأخرى والأشياء الضرورية اللازمة وهى بلد يأتيها تجار الهند محملة سفنهم بالبهار وبأشياء أخرى قيمة مثل المجوهرات والياقوت والماس واللالئ الرقيقة وجميع أنواع المجوهرات الأخرى**". وذكر بيلوتي أيضاً بأن هذه البضائع تأتى للاسكندرية عن طريق البر والبحر، وهناك يلتقى التجار مع بعضهم البعض يبيعون ويشترون كعادتهم، ولولا السوق التجارى المقام على أرض مدينة الاسكندرية، ما التقى التجار (أقباط البحر المتوسط) مع تجار الهند، ويقرر بيلوتي أيضاً أنه لولا نشأة مدينة الإسكندرية بين بحرين، لأصبحت مهجورة يقوم بزيارتها أقباط البحر المتوسط، والهنود ويمكثون بها ويقدمون للسلطان ما يطيب من خيراتهم، وبسبب الرسوم الباهظة المفروضة على البهار، والتى كانت تكلف أكثر من نصف ثمنه الأصلى لحدثت خسائر كبيرة، كان يتحملها سائر البلاد المسيحية الأخرى[١٤٨].

---

(١٤٧) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinziéme siècle*, pp. 52-53.

(١٤٨) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 75-76.

ويعود بيلوتي الكريتي إلى نقد سياسة السلطان الأشرف برسباي التجارية والتى تسببت في شل حركة التجارة في مصر فيذكر: "عندما بحث السلطان أمر أن يتم احتكار البضائع لصالحه، وأن يتم رفع قيمة الفائدة على المسيحيين وغيرهم، ومما لا شك فيه أنه كان يقود بلاده للدمار والخراب[١٤٩].

أشار بيلوتي أيضاً إلى خشب البناء ووسائل التدفئة بقوله: "... **لا يوجد لدى الأقباط في مصر أخشاباً سوى أخشاب نخيل البلح البرية المنتجة للبلح، ومنها يصنعون ما يريدون من المصنوعات الخشبية، وذلك نظراً لأنه يتم نقلها كل عام، وهذه الأشجار تنتج البلح طيب المذاق، بل وكان يتم تصديره بحراً عن طريق البحر المتوسط إلى بلاد النصارى، وكانوا يستخدمون هذه الأخشاب في إشعال النيران لطهو الأطعمة**"[١٥٠].

بيلوتي الكريتي ووصفه للحياة الاجتماعية والدينية في مصر:

أكد رأي بيلوتي الكريتي جان تنود[١٥١] الذي زار مصر عام ٩١٨هـ/١٥١٢م أن القاهرة تبلغ ثلاثة أمثال باريس[١٥٢]. أما برنارد دي بريدنباخ[١٥٣] فقال أنه لا يعتقد في وجود مدينة أخرى في العالم كله تضاهي القاهرة في كثرة سكانها واتساعها وعظمتها وثروتها، وأن جميع سكان إيطاليا لا يضاهون في الكثرة القاهرة وحدها[١٥٤].

---

(١٤٩) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 108.

(١٥٠) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 21.

(١٥١) جان تنود، رحالة ألمانى زار مصر فى عام ٩١٨هـ/١٥١٢م، ونزل بمدينة الاسكندرية ووصف كنائسها وفنادقها، ثم سافر إلى القاهرة وتحدث عن نهر النيل وعن أصناف الفاكهة المتنوعة، كذلك أشار إلى ركب الحجاج المتجه إلى مكة المكرمة، ولم يغفل الإشارة إلى شوارع وأسواق القاهرة،كما تحدث أيضاً عن القرافة، وكنيسة السيدة العذراء، ثم رحل عن القاهرة إلى سانت كاترين، وتعد رحلته لمصر من الرحلات المهمة .
C. Schefer, *Le voyage d'outremer de Jean Thenaud* (Paris, 1864).

(١٥٢) Jean Marie Carré, *Voyageurs et ecrivains francais en Egypte* (Le Caire 1932), p. 4.

(١٥٣) برنارد دى بريد نباخ هو رئيس أساقفة كاتدرائية "مايانس" قام بزيارة الأراضى المقدسة عام ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م، ودون مشاهداته فى كتابه المعنون "الرحلة المقدسة" الذى نشر للمرة الأولى عام ٨٩٠هـ/١٤٨٦م باللغة اللاتينية فى "مايانس" بفرنسا . F. Larrivaz, *Le Saints Peregrinations de Bernad de Breydenpah, 1483* (Le Caire 1904), pp. 66-67.

(١٥٤) Clerget, *Le Caire*, I, pp. 152 – 153.

تحدث بيلوتي الكريتي أيضاً عن مجالس السلطان وعدالته فيقول: "**عندما يعقد السلطان أى مجلس أو اجتماع، يبدأ أولاً بالنساء فإن لهم المساحة الأولى وكان لا يترك أى مواطن قاهري جاء لطلب مال أو عمل أو أى أرملة أو سيدة لها مثل هذه الظروف ولا يغلق بابه أمام أحد**"[١٥٥].

ويضيف بيلوتي الكريتي: اهتم الناس آنذاك اهتماماً كبيراً بإعداد أماكن النوم في منازلهم، فصنعوا أسرة من جريد النخل ووضعوا عليها وسائد مريحة محشوة بالقطن[١٥٦]. وفى فصل الصيف اعتاد معظمهم النوم لا داخل الحجرات لشدة الحر بل فوق الأسطح وفى أحواش المنازل حيث يشيدون مصاطب خاصة لذلك الغرض، وبذلك يتاح لهم الاستمتاع بالهواء المنعش اللطيف[١٥٧].ومع هذا يشير إلى أن مناخ القاهرة يعد أفضل مناخ في العالم آنذاك، والأكثر تناسباً لحياة الفرد، فهو معتدل لا هو بارد ولا شديد الحرارة، بخاصة مع وجود بعض المشروبات التي يأخذونها في وقت ارتفاع الحرارة، مثل شراب السكر وغيره من المشروبات التي تعتبر الأكثر قيمة في العالم، والمصريون من أفضل الناس في العالم بأسره في صناعة هذه المشروبات،وبفضل هذه الأدوية والمشروبات يبقون دائماً في حالة دائمة من النشاط والابتهاج ولا ينهكهم الحر أو الإعياء[١٥٨].

ويذكر بيلوتي الكريتي أن هناك علة واحدة تسيطر على هذا البلد ولكنها جاءت بالمصادفة وليس بسبب عيوب في مناخ مصر، هذه العلة تتمثل في وجود ألم ما يصيب العينين ويأتي نتيجة وجود كمية كبيرة من الأتربة والغبار الذي يحيط بالمدينة بأكملها ولهذا الألم يملك العديد من المصريين الأدوية اللازمة[١٥٩]. وكما سبق وأن ذكرنا أن جو القاهرة غير ممطر يستطيع أي شرقي مسلم أن ينام سواء داخل المنزل ليلاً أو خارجه أو حتى يستلقي فوق المقاعد أو المصاطب الموجودة هناك، وذلك نتيجة كثرة عدد الناس على هذه الأرض، ويستيقظ الناس صباحاً ويذهب كل فرد منهم إلى عمله، ولا يطهون طعامهم في المنازل بل يقومون بشرائه من

---

(١٥٥) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p.109.

(١٥٦) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١١٦.

(١٥٧) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 108.

(١٥٨) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 6.

(١٥٩) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 7.

الخارج،[١٦٠] حيث اعتادت الغالبية العظمى منهم – مهما بلغ ثراؤهم – شراء ما يحتاجون إليه من الأطعمة المطهوة التي تفيض بها الأسواق والطرقات[١٦١].

وقد تحدث بيلوتي الكريتي أيضاً عن مياه النيل فقرر أن .. "**ماء النيل أحسن ماء في الدنيا لا يوجد مثله ... ويستطيع الإنسان أن يشرب منه ما شاء وفى أى وقت يشاء دون أن يضره، ثم تحدث عن طريقة أخذ الماء من النهر وكيف أن هذا الماء يشفى المرضى ويفتح الشهية**"[١٦٢]. وكان يتم أخذ مياه النهر وتعبئتها في وعاء كبير ثم تترك في الهواء لعدة ساعات حتى تترسب الشوائب العالقة بها، وتصبح مياهها صافية، صالحة للشرب. ولمياه النيل فائدة أخرى فهى تقوم بتسهيل عملية الهضم داخل معدة الإنسان، وتجعل شهيته مفتوحة، ولم نسمع من قبل أن أحد تناول مياه النيل وشعر بالألم في معدته، كما نسمع في أى مكان في العالم، فهذه المياه نقية، حتى أن بعض الأشخاص ممن يعانون من متاعب في المعدة يأتون من بلاد أخرى من أجل الحصول على هذه المياه وبمجرد جلوسهم في مصر لمدة عام يشعرون بتقدم وتحسن ويتم شفاؤهم تماماً من الأمراض. ثم يشير بيلوتي الكريتي إلى أن ذلك حقيقى فالهواء والماء في غاية النقاء رغم كثرة عدد سكان مصر وتزايدهم، والكل يعرف أن ما أذكره صحيح بالفعل[١٦٣].

وقد قال طافور عن مياه نهر النيل "... **ماء نهر النيل أحسن ماء في الدنيا وكأنه ماء الجنة، ولم أشرب طول زيارتى سوى هذا الماء على الرغم من أنه كان باستطاعتى الحصول على النبيذ الجيد ...**" [١٦٤] .

أما عن فيضان النيل السنوي، فقد تحدث بيلوتي الكريتي عن فيضان النهر وأهميته بالنسبة للبلاد فقال: "... **في بلاد السلطان لا تمطر الدنيا أبداً ويتركز الأمر والحياة على فيضان النيل السنوى**"[١٦٥].

---

(١٦٠) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 108.

(١٦١) Schefer, *Le voyage d'outremer de Jean Thenaud*, p. 46; Larrivaz, *Le Saintes Pérégrination,* p. 60; Dopp, *L'Egypte au commencement du quinziéme siècle*, p. 108.

(١٦٢) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 6 - 7.

(١٦٣) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 6 – 8.

(١٦٤) طافور، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر، ترجمة وتقديم حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٨م)، ص ٦٢.

(١٦٥) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 20.

وتذكر بعض المصادر المعاصرة أن زيادة نهر النيل تبدأ عادة في شهر بؤونة (=يونيو) من شهور القبط، وتستمر طوال شهري أبيب ومسرى (=يوليو–أغسطس) وإذا كان النيل زائداً ظل طوال شهر توت (=سبتمبر)[١٦٦]، وتبدأ مياه الفيضان في الانحسار عن وجه الأرض في عشرين بابه (=اكتوبر)، أى أن مدة الفيضان حوالي ثلاثة شهور وخمسة وعشرين يوماً، وتلاحظ بداية الفيضان في أسوان[١٦٧].

كان فيضان النيل السنوي محط اهتمام كل المصريين على اختلاف طبقاتهم يرقبون ميعاد مجيئه، ويحسبونه فإذا حدث أن جاء فيضان النهر مبكراً عن موعده أو تأخر عن ميعاد الوفاء عد ذلك من النوادر الجديرة بالتسجيل وربما صنفوا له الأغانى والأشعار[١٦٨]. وتمتلئ المصادر المملوكية بالكثير من الأمثلة التي تؤيد ذلك فقد حدث أن أوفى النهر عام ٧٣٢هـ / ١٣٣١م قبل عيد النيروز[١٦٩] بثلاثة أيام ".. ولم يحدث هذا من سنين .." [١٧٠]. وفى سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م أوفى النيل في السابع والعشرين من شهر أبيب (=يوليو) "...ولم يحدث ذلك من مدة طويلة .." فصنف منادو البحر هذه الكلمات" النيل أوفى في أبيب، وخش يا حبيب، وقد بقينا في هنا، يا فرحنا .." كما صنفوا كلمات أخرى غير هذه. هذا عن موعد الفيضان،[١٧١] أما

---

[١٦٦] القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٢٩٢؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥٨.أنظر أيضاً : قاسم عبده، النيل والمجتمع، ص ١٤.

[١٦٧] المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥٤.أنظر أيضاً : قاسم عبده، النيل والمجتمع، ص ١٤.

[١٦٨] قاسم عبده، النيل والمجتمع، ص ١٤.

[١٦٩] النيروز أو النوروز هو عيد رأس السنة القبطية، ويقال إن جم شاد أو جمشيد أحد ملوك الفرس هو أول من أحدث الاحتفال به وذلك حين اكتمل ملكه وقضى على أعدائه. ومعنى كلمة نوروز بالفارسية (اليوم الجديد) ويزعمون أن الله خلق فيه النور، ومدة النوروز عند الفرس ستة أيام تبدأ في أول شهر أفرودين ماه ويسمون اليوم السادس النوروز الكبير، لأن الأكاسرة يقضون حوائج الناس في الأيام الخمسة الأولى ثم ينتقلون إلى مجالس أنسهم، ومن عاداتهم الاغتسال بالماء وأن يرشوا بعضهم بعضاً تبركاً ودفعاً للأمراض وطلباً للشفاء. القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٢، ص ٤٠٨ – ٤٠٩؛ النويرى، نهاية الأرب، جـ١، ص ١٨٥، ١٨٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٦٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص ٣٦٣؛ قاسم عبده، أهل الذمة في العصور الوسطى، دراسة وثائقية (القاهرة ١٩٧٩)، ص ١٦٢؛ انظر أيضاً : محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية في مصر المملوكية، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ١٥٢ (القاهرة ١٩٩٩م)، ص ٢٣٥–٢٣٦؛ *Encyclopaedia of Islam,* vol. 6 (Leiden 1987), sv. *Nawruz.*

[١٧٠] ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى (القاهرة ١٢٨٥هـ)، جـ٢، ص ٣٠٠.أنظر أيضاً : قاسم عبده، النيل والمجتمع، ص ١٥.

[١٧١] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٠٠.

عن بلوغ الزيادة في نهر النيل فكان تمام الستة عشر ذراعاً ، وهو علامة الوفاء، التي كان عندها يستحق الخراج[١٧٢]. ويبدأ النداء على الزيادة في اليوم التالي[١٧٣].

ويشير بيلوتي الكريتي إلى وجود مقياس للنيل مرتفع وكبير الحجم مصنوع من الرخام ولونه بنفسجي مائل للإحمرار وهو مزود بعدة علامات[١٧٤]. ويقصد بيلوتي هنا مقياس النيل بجزيرة الروضة، فقد عرف المصريون منذ أقدم العصور تشييد المقاييس في شتى أنحاء البلاد ليتعرفوا على ارتفاع النيل نظراً لعلاقته الوثيقة بري الأرض وتحصيل الخراج[١٧٥].

وتخبرنا المراجع بأوصاف هذا المقياس بأنه عبارة عن عمود رخامي مدرج ومثمن القطاع، يتوسط بئراً مربعة مشيدة بأحجار مهذبة، روعي في بنائها أن يزيد سمكها كلما زاد العمق فقد شيدت البئر من ثلاث طبقات السفلى على هيئة دائرة، يعلوها طبقة مربعة ضلعها أكبر من قطر الدائرة، والمربع العلوى والأخير ضلعه أكبر من ضلع المربع الأوسط. وهذا التدرج في سمك الجدران يدل على معرفة المسلمين بالنظرية الهندسية الخاصة بازدياد الضغط الأفقى للأتربة كلما زاد العمق إلى أسفل[١٧٦]. ويجري حول جدران البئر من الداخل درج يصل إلى القاع ويتصل المقياس بالنيل بواسطة ثلاثة أنفاق يصب ماؤها في البئر من خلال ثلاث فتحات في الجانب الشرقى بعضها فوق بعض حتى يظل الماء ساكناً في البئر، وقد صممت واجهاتها على هيئة دخلات غائرة في الجدران يعلوها عقود مدببة ترتكز على أعمدة مندمجة في الجدران ذات تيجان وقواعد ناقوسية أو رومانية مقلوبة[١٧٧].

ويقوم في وسط البئر عمود من الرخام يعلوه تاج رومانى مركب يبلغ طوله تسعة عشر ذراعاً [١٧٨]، حفر عليه علامات القياس بالأذرع والقراريط، يقوم فوق قاعدة من الخشب من جذوع النخيل[١٧٩]. ومثبت من أعلى بواسطة كمرة أو رباط من الخشب المجوف المحشو

---

[١٧٢] القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٠٠.انظر أيضاً : قاسم عبده، النيل والمجتمع، ص ١٦.

[١٧٣] القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٢٩٢، ٢٩٤؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥٨ .

[١٧٤] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 20.

[١٧٥] محمد حمدى المناوى، نهر النيل في المكتبة العربية (القاهرة ١٩٦٦م)، ص ١٤٧.

[١٧٦] فريد شافعى، العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها (الرياض، ١٩٨٢م)، جـ١، ص ٣٩١؛ أحمد عبد الرازق، تاريخ وآثار مصر الإسلامية (القاهرة ١٩٩٣م)، ص ٨٠ .

[١٧٧] كمال سامح، العمارة الإسلامية في مصر (القاهرة ١٩٧٠م)، ص ١٧؛ أحمد عبد الرازق، تاريخ وآثار مصر، ص ٨٠.

[١٧٨] D. B.Abou Seif, *Islamic Architecture in Cairo, An Introduction* (Cairo 1989), p. 51.

[١٧٩] أحمد عبد الرازق، تاريخ وآثار مصر، ص ٨٠.

بالرصاص[١٨٠] عليه كتابات كوفية يرتكز على جدران البئر من الداخل المزينة في أعلاها بكتابات كوفية أيضاً تشتمل على آية قرآنية[١٨١].

ويذكر بيلوتي الكريتى[١٨٢] أنه في صباح كل يوم كان عدة فرسان يرفعون الأعلام فوق أكتافهم، ويتجهون إلى المقياس لمعرفة مقدار زيادة النهر ثم يسيرون في شوارع القاهرة يصيحون "أن النهر زاد كذا علامة" وذلك كي يطمئن الناس وهؤلاء الفرسان الذين يصفهم "بيلوتي" هم الذين أطلقت عليهم المصادر العربية اسم "منادو البحر"[١٨٣] الذين كانت وظيفتهم مشابهة لدور وسائل الإعلام في العصر الحاضر من حيث نقل أخبار النهر اليومية إلى عامة الناس[١٨٤]. وكان علامة الوفاء أن يسدل الستار الخليفي على الشباك الكبير في صدر دار المقياس فإذا شاهده الناس استبشروا بالوفاء[١٨٥].

ويعود بيلوتي ويخبرنا بأنه عندما يحدث ويفيض الماء، يتوجه السلطان ممتطياً جواده من فم الخليج إلى السد الترابى حيث ينزل من حصانه وبيده معول من الذهب الخالص يضرب به على المصب ثلاث ضربات، بعدها يمتطي الجواد ثانية ويأتي جمع غفير من الناس بفئوسهم الموجودة في أيديهم، وذلك حتى يتم فتح القناة وتجري فيها الماء للوصول إلى مختلف أنحاء المدينة، ويمر داخل الأفرع الصغيرة والترع المحفورة بنفس الأسلوب ثم ينصرف السلطان إلى القلعة[١٨٦].

وصف بيلوتي أيضاً احتفالات كسر الخليج يوم وفاء النيل، بأنها عيد كبير "تجري فيه السفن والقوارب فوق النيل"[١٨٧] وقد أمدتنا بعض المراجع بمعلومات وافية عن هذه الاحتفالات وما يحدث فيها،فقد كان بلوغ النيل ستة عشر ذراعاً بشيراً بوفاء النيل، وإيذاناً ببدء ذلك المهرجان الضخم احتفالاً بهذه المناسبة التي يشارك الجميع فيإحيائها باعتبارها عيداً قومياً ، يهتم الجميع به ابتداء بالسلطان وانتهاء "بالعامة"[١٨٨]، فإذا أتم النهر ستة عشر ذراعاً يعلق على الشباك الكبير في الجهة الشرقية من دار المقياس ستر أصفر فيعلم الناس بالوفاء، وتكون هذه

---

[١٨٠] ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار (القاهرة ١٩٨٣م)، جـ٤، ص ١١٤.

[١٨١] سورة ابراهيم، آية رقم ٣٧.

[١٨٢] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 20 - 21.

[١٨٣] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص ٥٦.انظر أيضاً : قاسم عبده، النيل والمجتمع، ص ٣٩.

[١٨٤] قاسم عبده، النيل والمجتمع، ص ٣٩ .

[١٨٥] قاسم عبده، النيل والمجتمع، ص ٤٠.

[١٨٦] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 20.

[١٨٧] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 21 - 22.

[١٨٨] قاسم عبده، النيل والمجتمع، ص ٤٣.

الليالى من الليالى العظيمة بمصر والقاهرة، يوقد فيها الأهالى القناديل والشموع ويتحول ليل القاهرة إلى نور من كثرة الأضواء، ويحضر كبار الأمراء ومعهم الأستادار[١٨٩] بالخلع التي توزع عادة في هذه المناسبة، ويحضر مقرئو القرآن الكريم يبيتون بدار المقياس ويتناوبون القراءة طوال الليل، كما يحضر المغنون الذين يغنون لمن يكون موجوداً في دار المقياس طوال الليل[١٩٠].

وفى صباح اليوم التالى يعمل سماط حافل من الشواء والحلوى والفاكهة ويحضره السلطان أو غيره ممن يقوم مقامه من الأمراء ويتخاطف العامة السماط ".. ولا يمنع أحد من ذلك"، وفي بعض الأحيان كان يجبى من أهل مصر والقاهرة ثمن الحلوى والفاكهة والشواء الذي يوضع في السماط الذي يمد في دار المقياس يوم الاحتفال بوفاء النيل، ولكن السلطان المنصور قلاوون "أبطل ذلك وجعل مصروفه من بيت المال"[١٩١].

بيلوتى الكريتي وطبقات المجتمع المصري:

أما عن سكان مدينة القاهرة فيذكر بيلوتي أنهم ليسوا بالمقاتلين أو المحاربين، بل هم أناس مسالمون، يريدون العيش في سلام، هم أصحاب أرواح رقيقة، ولا يعرفون شيئاً عن السلاح[١٩٢].

وقد قسم بيلوتي الكريتي طبقات الشعب المصرى إلى ثلاث طبقات كبرى:

الطبقة الأولى من الشعب "المصريون وساداتهم"

الخليفة والسلطان: طبقة الشعب الأولى هى طبقة عامة الشعب المصرى، وهى طبقة يصعب علينا تعدادها أو حصرها في عدد معين[١٩٣] فإليهم ينتمى الخليفة "رئيس ديانتهم" وهو

---

[١٨٩] الاستادار وظيفة من وظائف أرباب السيوف يتولى صاحبها شئون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان وله مطلق التصرف في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك بين المماليك وغيرهم، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٠، جـ٥، ص ٤٥٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ٢٣٢، هـ ١.

[١٩٠] ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١١٤ – ١١٥.انظر أيضاً : قاسم عبده، النيل والمجتمع، ص ٤٣.

[١٩١] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص ١٢١؛ قاسم عبده، النيل والمجتمع، ص ٤٤، وللتفاصيل انظر: القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥١٢ – ٥١٤؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٣٠٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص ٢٣٣؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، (باريس ١٨٩٤م)، ص ٨٧؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١١٥.انظر أيضاً : قاسم عبده، النيل والمجتمع، ص ٤٤.

[١٩٢] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 7.

يماثل بابا روما "رئيس الديانة المسيحية" الذي يتمتع بمكانة متميزة، والذي يعينه الشعب. [١٩٤] وعندما كان يتحرك السلطان لحصار أعدائه كان يصطحب الخليفة لأنه في حالة وفاة السلطان يحل الخليفة محله حتى يتم تعيين آخر، وكان الخلفاء الذين ينتمون إلى البيت العباسي يسكنون القاهرة، وهم الذين يقومون بتنصيب سلاطين المماليك ويمنحونهم رداء السلطة والعمامة السوداء رموز الكرامة والرفعة، وكان السلطان يتولى منصب الحاكم المطلق. وهنا يتحدث بيلوتي الكريتي عن مكانة الخليفة الروحية، وأنه لابد من حصول السلطان على تقليد من الخليفة لإضفاء صفة الشرعية على حكمه لأنه لا شرعية بدون اعتراف الخليفة العباسي[١٩٥].

الطبقة الثانية من الشعب "المماليك"

شكل الرقيق الطبقة الثانية من المجتمع المصري، الذين يتم شراؤهم من البلاد المسيحية، ومنهم يخرج المماليك خدام السلطان؛ ومن هذه الطبقة أيضاً يخرج السادة والحكام الذين يتولون مناصب السلطنة، ويحكمون الدولة والبلاد، فهم يحكمون ويتسيدون، على مدن القاهرة ودمشق وكل الشام، وفيها يوجد كل المسيحيين العبيد الذين تم شراؤهم وأصبحوا مرتدين[١٩٦].

الطبقة الثالثة من الشعب "البدو"

الأعراب أو البدو هم الذين يمثلون أكبر وأقوى قوة في هذه البلاد. وتعتبر طبقة الأعراب من الطبقات الكبيرة كثيرة العدد، ولا يوجد لهم مدن بعينها يمكثون فيها، بل هم أسياد المناطق الريفية والقرى الكبيرة، يمتطون الخيول ويركبون الإبل، ولديهم أعداد كبيرة من الحيوانات

---

[١٩٣] عرف البعض العامة في عصر سلاطين المماليك بأنهم جمهور كبير من الباعة والسوقة والسقائين والمكاريين والمعدمين أو أشباه المعدمين. سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٣٧؛ والبعض الآخر عرفهم بأنهم جميع الرعايا من سكان المدن باستثناء رجال القلم، إبراهيم طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (القاهرة ١٩٦٠)، ص ٢٥٠؛ ويذكر بعض الباحثين أن المقصود بالعامة هم أهل المهن والصنائع والتجار والخدم والجند واللصوص، والعيارين والشطار. بدرى محمد فهد، العامة بغداد في القرن الرابع الهجرى، بغداد ١٩٦٧م، ص ١٣. ولمزيد من التفاصيل انظر أيضاً: محاسن الوقاد الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م، تاريخ المصريين العدد ١٥٢ (القاهرة ١٩٩٩م)، ص ٢٣ وما بعدها.

[١٩٤] اخطأ بيلوتي الكريتي في قوله، فلم يكن الخليفة يعين أو يتم اختياره من قبل الشعب المصرى، لكنه من أبناء البيت العباسى.

[١٩٥] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 10.

[١٩٦] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 14.

كالأبقار والخراف والماعز أكثر من أى مكان آخر في مصر[١٩٧]. أما عن موطن هؤلاء الأعراب، فيقع على الجانب الآخر من النيل جهة البحر المتوسط، وهناك هم أسياد المنطقة، ويقولون أنهم غير تابعين لمدينة القاهرة. رغم أنهم يدفعون للسلطان عدة مبالغ مالية. وقد أشعل هؤلاء الحروب العديد من المرات ضد السلطان، قائلين: "إن الله لم يأمرهم بوجوب دفع أموال للسلطان، وكانوا يمتنعون بالفعل عن سداد هذه المبالغ في بعض الأوقات، فكان السلطان يرسل لهم عدداً من القادة وبصحبتهم قوة كبيرة، مزودين بالسلاح، يقبضون على رؤسائهم الكبار، وحينها يقومون بدفع كمية كبيرة من الذهب ليتخلصوا من تلك المحنة، وبعدها يعقدون سلاماً مع السلطان، وبعد مرور عامين يرجعون إلى حالة من التمرد على السلطان، ومن ناحية أخرى بفضل قدوم هؤلاء الأعراب إلى القاهرة، كانت تمتلئ المدينة بشتى أنواع الحيوانات المعدة للذبح، وبأعداد أخرى كبيرة من الخيول والجمال وأيضاً كميات من الحنطة والقمح[١٩٨]. هذا عن تقسيم بيلوتي للمجتمع المصري أواخر القرن ٨هـ/١٤م الذي أشار إلى الدسائس والانقلابات التي كانت تحدث إبان تلك الفترة. من ناحية أخرى أشار بيلوتي إلى أن الطبقة الأولى هم أهل البلاد لأن الخليفة ينتمي إليهم، ويذكر الأعراب أن السلطان وكبار السادة ينتمون إليهم لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أعرابى بينما يشير إلى المماليك الذين هم في الأصل رقيقاً تم شراؤهم وأن الله وهبهم السيف والسلطة لحكم هذه البلاد وللتصرف في شئونها، ولهذا فالطبقات الثلاث في انقسام ونزاع دائم كما سبق وأن ذكرنا آنفاً[١٩٩].

أما ابن خلدون فله تقسيمه المعروف، نصه أن ملك مصر في عصر المماليك "إنما هو سلطان ورعية"؛ أى أن هناك طبقة حاكمة مسيطرة تمثل السادة من المماليك، وطبقة من المحكومين المغلوبين على أمرهم يمثلون فئات أهل مصر جميعاً[٢٠٠].

من ناحية أخرى حاول المقريزى تقسيم أهل مصر في عصره إلى سبعة أقسام هم:

---

(١٩٧) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 18.

(١٩٨) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 18.

(١٩٩) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 11.

(٢٠٠) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨٣. يوافق ابن خلدون في رأيه المؤرخ لين بول، الذي قسم سكان مصر في عصر المماليك إلى طبقتين كبيرتين تفصل بينهما حواجز وسدود معينة؛ الأولى طبقة المماليك وعرفها بأنها أقلية عسكرية ممتازة، والثانية بقية فئات الشعب الخاضعة، وعليها فلاحة الأرض ودفع الضرائب، وذكر أن الطبقة الثانية عاشت محرومة من كل نفوذ في شئون الحكم سوى بعض الوظائف ذات الصبغة الدينية. انظر. . Lane-Poole, *History of Egypt in the Middle Ages* (London 1901), pp. 252-255

أهل الدولة من المماليك، وأهل اليسار من التجار، ومتوسطو الحال من الباعة والسوقة، وأهل الفلح، والفقهاء ويشملون طلاب العلم وأرباب الصنائع والمهن، وذوو الحاجة والمسكنة[٢٠١].

ويعلق أحد المؤرخين المحدثين بقوله: "أن هذا التقسيم – رغم شموله – يغفل ذكر أرباب الوظائف الديوانية من المسلمين والذميين، كما يغفل الأعراب مع ما لهاتين الطائفتين من أهمية في عصر المماليك، ويبرر ا.د. سعيد عاشور ذلك بقوله أيضاً : "لعل المقريزى أدمج الأعراب في أهل الفلح، كما أدمج أرباب الوظائف الديوانية في مختلف الطبقات التي عاشوا فيها"[٢٠٢]؛ حيث قسم سكان مصر في عصر المماليك إلى سبع فئات هى: المماليك والمعممون والتجار، وطوائف السكان وأرباب المهن في المدن، والعوام، وأهل الذمة، والفلاحون، والأعراب، والأقليات الأجنبية[٢٠٣] .

وقد تناول بيلوتي الكريتي قرافة المسلمين في القاهرة، وأشار أنها تبعد عن القاهرة بحوالى ميل كامل، وهى عبارة عن مدينة كبيرة، ولا يوجد بها أى نوع من التحصينات أو الحوائط ومزودة بأحواش عالية ومنخفضة، وفى هذه المدينة يتم وضع جثث من فارقوا الحياة من البشر، وكل شرقى مسلم وغنى برجوازى لديه حوش مستقل داخل هذه المدينة، ويواصل حديثه عن المقابر فيذكر أنه في المقابر السفلى يقومون بدفن موتاهم، وفى الأحواش العليا، ثم يأتى أقارب المتوفين لزيارة موتاهم أيام الجمع والأعياد، وفى هذا اليوم يجتمعون معاً ويقومون بطهى اللحوم ويأتيهم الفقراء من كل أنحاء القاهرة، وذلك لينالوا قسطاً من هذا الطعام، وبالإضافة إلى حصولهم على بعض الأموال كحسنة من هؤلاء الناس[٢٠٤]، هكذا أطنب بيلوتي في وصف القرافة ونظامها والحياة فيها.

أما عن وصف المقريزى للقرافة فتحدث عن قرافتين لأهل مصر والقاهرة، يدفنون فيهما موتاهم؛ الأولى في سفح المقطم ويقال لها القرافة الصغرى، والثانية في مصر ويقال لها القرافة الكبرى[٢٠٥].

---

[٢٠١] المقريزى، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٨٢.

[٢٠٢] سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٠.

[٢٠٣] سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١١.

[٢٠٤] Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 34 - 35.

[٢٠٥] المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٠٦ ؛ لمزيد من التفاصيل انظر : محمد حمزه اسماعيل الحداد، سلسلة الجبانات فى العمارة الإسلامية قرافقة القاهرة، من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر المملوكى (القاهرة ٢٠٠٦م)، ص ٤١ وما بعدها، ص ٧٦ ؛ انظر أيضاً محاسن الوقاد، صورة المجتمع المصرى زمن سلاطين

ووصف ابن بطوطة قرافة مصر بأنها "عظيمة الشأن"[٢٠٦] أما البلوى المغربى فوصف قرافة مصر بأنها "بلدة كبيرة قائمة بنفسها مستقلة بأسواقها ومساجدها"[٢٠٧].

وقد وصف الحسن الوزان القرافة بقوله: "القرافة ربض بشكل مدينة صغيرة على مسافة رمية حجر من الجبل، ونحو ميلين من أسوار المدينة، وفيه نحو ألفى كانون (حانوت أو دكان) كان قديماً عامراً أكثر مما هو عليه في الوقت الحاضر إذ يكاد يكون خرباً[٢٠٨] .

ويخبرنا ابن الزيات، أنه وضع نظام وترتيب معين لزيارة القرافة، يقضى بأن يبدأ الزائر بمشهد السيدة نفيسة أو مشهد الإمام الحسين، ثم ينتقل إلى غيره بالترتيب[٢٠٩].

ولم يغفل المقريزى أن يشير أن القرافة في عصر سلاطين المماليك أصبحت معظم مجتمعات أهل مصر وأشهر متنزهاتهم[٢١٠] .

بيلوتي الكريتي ووصفه لقافلة الحج من القاهرة إلى مكة المكرمة:

لم يغفل بيلوتي أيضاً الإشارة إلى قافلة الحج المتجهة إلى مكة في موعدها المعتاد بصحبة أحد الأمراء الذي كان يقودها في وسط احتفال كبير، كما يصاحب القافلة أعداد كبيرة من الأفراد الذين جاءوا من القاهرة والإسكندرية وباقى أنحاء مصر، وتلتقى في طريقها بأشخاص كثيرين من سوريا وتركيا، وبلاد أخرى في صحبة القافلة، ويقود تلك القافلة، أمير من القاهرة، كان يقوم بدور القضاء، وقد يبلغ عدد الأشخاص في القافلة حوالي ألف شخص يذهبون إلى مكة لهدفين: إما للحج أو للبيع والشراء وعرض البضائع في الأسواق هناك وهذا هو الأرجح. وهناك أعداد كبيرة من الجمال في القافلة وهى تحمل أشياء كبيرة سواء للحجاج أو للتجارة، وقد يكون فوقها هودج مغطى لحماية الركاب من حرارة الشمس، وهناك الكثير من المسلمين الذين يأخذون

المماليك فى ضوء كتاب المدخل لابن الحاج ٦٤٨ – ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م، مجلة المؤرخ المصرى، العدد الرابع والثلاثون (يناير ٢٠٠٩م)، ص ١٨٩ وما بعدها .

[٢٠٦] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٧٤.

[٢٠٧] البلوى، رحلة البلوى المغربى، ورقة ٥٩ – ٦٠.

[٢٠٨] ليون الأفريقى، وصف أفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة (الرياض ١٩٩٣م)، ص ٢١٠ – ٢١١.

[٢٠٩] ابن الزيات، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى القاهرة ١٩٠٧م)، ص ٣٠–٣١ .

[٢١٠] المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣١٩.

زوجاتهم وأطفالهم وحاجاتهم من مؤن وغيرها. وحين يريدون إنزال أمتعتهم تجثو الجمال على ركبها، وكذلك الأمر عند الصعود ووضع الأمتعة لتعود بعدها كما كانت وتتابع السير[٢١١].

ترحل القافلة المتجهة إلى مكة في الأوقات المعتادة مع قيام الناس بالاحتفالات منهم راكبو الجمال أو الخيول أو المترجلون، وتبقى ثلاثة أيام حتى تصل إلى مكة، وتظل حتى ينتهي سوق التجار وأداء الحجاج للمناسك الخاصة بالحج، فتعود مرة أخرى إلى القاهرة، خلال ثلاثين يوماً آخرى، وبذلك فإن مدة الرحلة تستغرق حوالي تسعين يوماً[٢١٢].

بيلوتي الكريتي والأماكن المقدسة المسيحية بمصر:

أشار بيلوتي إلى منطقة المطرية وتحدث عنها بقوله: "... **قرب القاهرة على بعد ثلاثة أميال من مدينة أورشليم توجد مدينة يطلقون عليها اسم المطرية وتروى الأسطورة أن العائلة المقدسة أثناء مرحلة هروبها إلى مصر توقفت عندها** ..." وكان يفد إلى هذه المنطقة الحجاج العائدون إلى سيناء، ويوجد فيها بئر مطعم بالرخام الأبيض، ويمتلئ هذا البئر بماء عذب وفيه قامت السيدة العذراء بغسل ملابس طفلها يسوع، وهنا نما البلسم،[٢١٣] وعلى مقربة منه نمت بعض الأشجار الصغيرة التي تشبه أشجار الكروم، والتي كانت ترتفع عن الأرض بمقدار نصف ذراع وعليها تزدهر الأوراق خضراء تشبه أوراق العنب، تنمو وتتفتح بها الزهور في شهر أغسطس وسبتمبر، ويقوم الأشخاص المعينون برعاية الحديقة وهم من النصارى بتهذيب الأوراق بأيديهم وقطف الناضج منها ثم يضعونها في أنابيب من الزجاج، وفى نهاية سبتمبر يملئ العديد من الأنابيب بالبلسم الأخضر وبعدها يتم نقله في وجود السلطان، ويأتي البطاركة الأقباط لمشاهدة ذلك من مختلف الدول مثل بطاركة الهند بصحبة السلطان ومعه الخليفة والأئمة الأربعة ويجتمعون بأسرهم في قصر السلطان وهناك يأخذون البلسم ويضعونه على النار داخل إناء ويقوم الخليفة بأئمته الأربعة بتلاوة بعض الصلوات ومثلهم يفعل البطاركة الذين يقومون بتلاوة

---

(٢١١) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 43.

ولمزيد من التفاصيل انظر: محاسن الوقاد، المحمل المصري في العصر المملوكي الأول.

(٢١٢) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 45.

(٢١٣) يذكر ابن البيطار عن شجر البلسان من الناحية العلمية بقوله: "البلسان شجر لا يعرف نباته اليوم بغير مصر خاصة بالموضع المعروف بعين شمس أما دهن البلسان فإنه يخرج بعد طلوع القلب بأن تشرط الشجرة بمشراط من حديد فيسيل منه شئ يسير والذى يجتمع منه في كل عام ما بين ٥٠-٦٠ رطلاً يباع بضعف وزنه فضة". ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية (القاهرة ١٩٨٣)، جـ١، ص ١٠٧ – ١٠٨.

بعض الصلوات الخاصة طبقاً للعقيدة المسيحية حيث يتم غلى البلسم على النار، وبعدها يتحول لونه من الأخضر إلى اللون الأحمر[٢١٤].

وطبقاً لاعتقاد البطاركة المسيحيين يعد هذا من الأشياء المقدسة لديهم، لأنه يستمد قوة من العقيدة ذاتها، وبعد ذلك يتم إعطاء كمية من البلسم لبطريرك الهند وكمية أخرى لبطريرك القسطنطينية والباقي يظل في حوزة السلطان[٢١٥]. من ناحية أخرى أمدنا بيلوتي الكريتي بمعلومات هامة عن الطرق المختلفة لتحضير البلسم فذكر: ".. **عندما تزدهر أشجار الكروم التي تنتج البلسم وتظهر فيها الأزهار يتم تقليم أطراف الفروع والقمم التي تسمى شراب البلسم**". ولم يفت بيلوتي أيضاً أن يتحدث عن استخدامات البلسم المختلفة، حيث كان يقوم الصيادلة بشراء هذا البلسم ويستخدمونه في عدة أشياء. ويخبرنا الكريتي أن زراعة البلسم كانت حكراً على الدولة فقط، وأما حصاده فكان يتم في الوقت الذي يراه موظفو السلطان، ويتم تصنيف البلسم ضمن الكنوز الملكية ولم يكن مسموحاً بأخذ شئ من هذه الكنوز إلا بتصريح قبل الأخذ منه. أما عامة الشعب فكانوا يستطيعون الحصول على أى كمية يريدونها بعد دفع ثمنها[٢١٦].

أما الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر في العصور الوسطى بوجه عام وفى عصر سلاطين المماليك بوجه خاص وتحدثوا عن منطقة المطرية وشجرة البلسم. فقد تحدث بعضهم عن أهمية منطقة المطرية وإلى أنها كانت أول استراحة للعائلة المقدسة قبل دخولهم إلى مصر القديمة[٢١٧]. وقد تركزت أهمية المنطقة في ثلاثة مزارات دينية هى بستان البلسان، البئر الذي يسقى البستان ويقال أن السيدة العذراء غسلت فيه ملابس السيد المسيح،فاعتبر مكاناً مقدساً ، وشجرة العذراء، وكان الحجاج يأتون إلى قرية المطرية التي تقع شمال شرق القاهرة والتى وصفوها بأنها غنية بحقولها وفاكهتها ومياهها الحلوة[٢١٨].

---

(٢١٤) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 29-30.

(٢١٥) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 33.

(٢١٦) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinziéme siècle*, p. 32.

(٢١٧) Nicolo of Poggibonsi, *A Voyage Beyond the Seas*, p. 93; G. Gucci, *Visit to the Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384,* translated from the Italian by Theophilus Bellorini and Eugene Hoade with a preface and notes by Bellarmino Bagatti (Jerusalem 1948), pp. 107-108; Ibrahim Ragab Fahmy, *Medicinal Plants and their Vegetal Drops* (Cairo, 1970); L ,Frescobaldi, *Visit to the Holy Places of Egypt,* pp. 54-55; Nicoles de Martani, *Relation du pélerinageà Jerusalem*, pp. 568-569.

(٢١٨) Bernard de Breydeubach, *Saintes Pérégrinations de Bernard*, pp. 40-41; Harff, *The Pilgrimage of Arnold*, pp. 101-102.

وقد أشار المقريزي إلى منطقة المطرية بقوله: "وبعين شمس نبات يزرع كالقضبان يسمى البلسم يتخذ من دهن البلسان ولا يعرف بمكان في الأرض إلا هناك أما البئر فيذكر: "وبناحية المطرية من حاضرة عين شمس وهو شجر قصار يسقى من ماء بئر هناك وهذا البئر تعظمها النصارى وتقصدها وتغتسل بمائها وتستشفى به ويخرج لاعتصار البلسان أوان إدراكه من قبل السلطان من يتولى ذلك ويحفظه ويحمل إلى الخزانة السلطانية ثم ينقل منه إلى قلاع الشام والمارستانات لمعالجة المبرودين، ولا يؤخذ منه شئ إلا من خزانة السلطان بعد أخذ مرسوم بذلك، ولملوك النصارى من الحبشة والروم الفرنج فيه غلو عظيم، وهم يتهادونه من صاحب مصر ويرون أنه لا يصح عندهم لأحد أن ينتصر إلا إذا انغمس في ماء المعمودية ويعتقدون أنه لابد أن يكون في ماء المعمودية شئ من دهن البلسان ويسمونه الميرون"[٢١٩]. ثم يذكر بعد ذلك أن سبب تعظيم النصارى للبلسان هو أن العائلة المقدسة في طريق رحلة العودة لبلادهم: "خرجوا منها إلى عين شمس فاستراحوا هناك بجوار ماء فغسلت مريم من ذلك الماء ثياب المسيح وقد اتسخت وصبت غسالتها بتلك الأرض فأنبت الله هنا البلسان، وكان إذ ذاك بالأردن فانقطع من هناك وبقى بهذه الأراضى وعمرت هذه البئر التي هى الآن موجودة هناك على ذاك الماء الذي غسلت منه مريم. وبلغنى أنها الآن إذا اعتبرت يوجد ماؤها عيناً جارية في أسفلها فهذا سبب تعظيم النصارى لهذه البئر وللبلسان فإنه إنما سقى منها والله أعلم[٢٢٠].

كذلك أشار ابن إياس إلى منطقة المطرية أثناء حديثه عن فضائل مصر بقوله: "وبها بئر البلسان التي بالمطرية قيل أن المسيح اغتسل به، وقيل أن أمه غسلت قميصه من تلك البئر ورشت الماء في الأرض فنبت هناك البلسان وليس يوجد البلسان إلا بالمطرية فقط"[٢٢١].

ويشير الرحالة جورجيو جيوشى Giorgio Gucci بقوله: "أقام المماليك على هذا البئر ساقية تديرها الجواميس أو الأبقار أو الثيران لتسقى حديقة البلسم، وهو نبات لم يكن ينمو في العالم، إلا في هذا المكان فقط، وإذا نمت زراعته بمياه غير مياه هذه البئر، ذبل النبات على الفور. "ولقد أحاط المماليك حديقة البلسم هذه التي كانت تدعى حديقة السلطان بالمطرية، أحاطوها بالأسوار، وعينوا لها الكثير من الحراس حتى لا يسرق النبات؛ فقد كان إيراد الحديقة

---

[٢١٩] المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٢٨ وما بعدها وعن شجرة البلسان انظر: ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، جـ١، ص ١٠٧-١٠٨ .

[٢٢٠] المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٢٨ وما بعدها.

[٢٢١] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ١، ق١، ص ٣٤ – ٣٥.

يمثل جزءاً من ثروة السلطان[٢٢٢]. ومع ذلك فقد استطاع الرحالة الإيطالى جورجيو جيوشى رشوة الحراس لكى يجمعوا له بعضه[٢٢٣].

وفيما يتعلق بالحسن بن الوزان الذي زار مصر في القرن ١٠هـ/١٦م فيقول: "وعلى مسافة ميل من هذه الأضرحة تقع الأرض الزراعية المسماه المطرية، وهنا يقع البستان والشجرة الوحيدة التي تنتج البلسم، إذ لا يوجد في العالم قاطبة سوى هذه الشجرة، وقد زرعت في وسط نبع يشبه البئر وهى ليست بالشجرة الكبيرة جداً وأوراقها تشبه أوراق الكرمة ولكنها أصغر[٢٢٤].

أما بيرو طافور الذي زار المنطقة في أول القرن ٩هـ/١٥م فذكر: "وفى أحد الأيام ذهبنا إلى المطرية حيث يستخرج البلسم وتبدو المطرية كحديقة محاطة بسور وفيها ينمو البلسان وتبلغ مساحة البستان ستين إلى سبعين قدماً مربعاً ويبدو البلسان كشجرة عنب عمرها عامان. ويقومون بجمعه في شهر أكتوبر حيث يأتى السلطان في احتفال كبير لجمع زيت البلسان. ويقال أن المستخرج منه قليل للغاية، ويتم العمل بجمع أفرع النبات وغليها في الزيت ثم يرسلونها للعالم كبلسم"[٢٢٥].

---

[٢٢٢] Gucci, *Visit to the Holy Places*, pp. 107 – 108.

[٢٢٣] Lengherand, *Voyage de Georges*, pp. 173-174.

[٢٢٤] ليون الأفريقى، وصف أفريقيا، ص ٤٨٨ .

[٢٢٥] طافور، رحلة طافور، ص ٧٠ – ٧١ .

الخاتمـة :

تلك هى الصورة التي رسمها بيلوتي الكريتي عن مصر إبان القرن ٩هـ/١٥م، والتى تناول فيها وصفها سياسياً وعسكرياً واجتماعياً ،كما احتوى هذا الوصف أيضاً على معلومات اقتصادية غاية في الأهمية للدارسين والباحثين في التاريخ الاقتصادى لتلك الفترة. ففيما يتعلق بالأحداث السياسية، أوضحت الدراسة الأحداث التي عاصرها المؤلف ومنها ثورة المماليك ضد السلطان الناصر فرج بن برقوق؛ وكيف كان يتم شراء المماليك من أكبر مراكز تجار العبيد في البندقية، ونقلهم للقاهرة، وفحصهم أمام السلطان للتأكد من عدم وجود كبار سن أو ضعفاء بينهم.

وألقت الدراسة الضوء على نظام القناصل داخل الدول والذى نجم عن الحروب الصليبية في الشرق، وأوضحت مهام القناصل الأساسية والتى كان من أهمها الحفاظ على حقوق كل فرد من أبناء جاليته، وإذا تعذر عليه الحصول على العدالة المطلوبة أمام المحاكم المحلية، كان عليه أن يرفع الأمر إلى السلطان المملوكى. وقد أبرزت لدراسة أيضاً الدور الذي قام به بيلوتي الكريتى، عندما كلفه مجلس تجار البندقية بالتفاوض على إعادة شراء مائة وخمسين أسيرا مسلما تم بيعهم لحاكم جزيرة ناكسوس عن طريق أحد القراصنة وذلك لحساب السلطان الناصر فرج.

كما كشفت الدراسة كذلك أن بيلوتي الكريتي لم يأت إلى مصر تاجراً للبيع والشراء فقط، بل كان داعياً لحملة عسكرية صليبية الهدف منها احتلال مصر؛ وبينت من جهة أخرى أن كتابه الذي قدمه للبابا عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م احتوى على معلومات اقتصادية غاية في الأهمية. وبينت الدراسة أيضاً الشروط والصفات التي ذكرها بيلوتي الواجب اجتماعها في قائد تلك الحملة الصليبية. كما كشفت أيضاً عن السبب الذي من أجله ألف بيلوتي الكريتي كتابه ودعوته للحملة الصليبية ضد مصر لأنه رأى بنفسه مائتين من الأسرى الأوروبيين أرسلهم السلطان العثماني بايزيد بن مراد خان هدية إلى السلطان المملوكي الظاهر برقوق بعد انتصاره في معركة نيقوبوليس عام ٧٩٨هـ/١٣٩٦م، وقد آلمه اعتناقهم الإسلام وسوء أحوالهم وما تلا ذلك من سقوط لقبرص عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م وأسر ملكها جانوس، فلم يستطع بيلوتي السكوت على ذلك الوضع، فأرسل إلى البابا يرجوه أن يخطط لحملة على الشرق من أجل منفعة المسيحيين.

وأثبتت هذه الدراسة أيضاً أن التجار البنادقة كانوا من أقوى الجاليات في مصر، والدليل على ذلك إشارة بيلوتي الكريتي إلى أنه شاهد اعتداء أحد تجار البندقية على صعلوك مصرى في فندقهم بالاسكندرية، ولم يعترض أحد على ذلك.

وأكدت هذه الدراسة أيضاً على حب بيلوتي الكريتي لمصر رغم إصراره على إعداد حملة صليبية لاحتلال القاهرة والاسكندرية، فقد وصف مصر وصف المعجب المتيم بمن يحب، ومن ذلك قوله: "هذه البلاد السامية جداً" كما أسماها "بلاد الله الأولى" وقرر أنه "لا يوجد أغنى منها في الدنيا" وأن تجارة الشرق والغرب لا يمكن أن تستغنى عنها " وأن "مدينة القاهرة أكبر مدينة في الدنيا" كما وصف نهر النيل بأنه ينبع من الجنة الأرضية ويعيش الناس على مائه وحصاده وسمكه وفواكهه..." [٢٢٦] ومما يؤكد حبه العميق لمصر أيضاً : أنه تمنى أن يكتب الله له أن يموت فيها، وأن يقبر في كنيسة القديس سيرج بالفسطاط. [٢٢٧]

ألقت الدراسة كذلك الضوء على نهر النيل وطريقة الرى والزراعة لدى الفلاحين المصريين إبان العصر المملوكى، وكيف كانوا يفتحون سدود الترع فتغمر المياه الأرض كأنها منظر ماء بحر حقيقى.

وبينت الدراسة الاحتفالات التي كانت تقام يوم كسر الخليج ووفاء النيل، وكيف أنه كان بمثابة يوم عيد في كل أنحاء مصر المملوكية، يعمل فيه سماط حافل من الشواء والحلوى والفاكهة بحضور السلطان والأمراء. كما أبرزت فيضان نهر النيل وأهميته بالنسبة لمصر، وأنه كان محط اهتمام كل المصريين على اختلاف طبقاتهم يرقبون ميعاد مجيئه. وأن هناك علاقة قوية بين حالة الفيضان والحالة الاقتصادية للبلاد. كما ألقت الضوء أيضاً على مقياس النيل بجزيرة الروضة، والذى عرفه المصريون منذ أقدم العصور، ليتعرفوا على ارتفاع النيل، نظراً لعلاقته الوثيقة برى الأرض وتحصيل الخراج .

وقد كشفت الدراسة بجلاء عن ازدهار الثروة السمكية والثروة الحيوانية إبان العصر المملوكى، والدليل على ذلك امتلاك مصر ثروة هائلة وبكميات كبيرة من الأبقار والماعز والجاموس وغيرها من الحيوانات. ألقى بيلوتي الضوء كذلك على براعة الشعب المصري في معامل التفريخ الصناعية للدجاج، بما لهم من خبرة ودراية واسعة بتلك الصنعة.

---

(٢٢٦) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, p. 3.

(٢٢٧) Dopp, *L'Egypte au commencement du quinzième siècle*, pp. 15-16.

كما أبرزت الدراسة أيضاً أهمية الإسكندرية التجارية، وأنها كانت بمثابة نقطة التقاء بين الشرق والغرب، كما ألقت هذه الدراسة كذلك الضوء على مصانع الحرير والنسيج بالإسكندرية وكيف انهارت هذه الصناعة. كما ازدهرت أيضاً التجارة البحرية، وكانت الإسكندرية بمثابة سوق يلتقى فيه التجار مع بعضهم البعض يسعون ويشترون كعادتهم، ولولا السوق التجارى المقام على أرض مدينة الإسكندرية، ما التقى التجار (أقباط البحر المتوسط) مع تجار الهند.

وقد أوضحت الدراسة كذلك أن ازدهار التجارة البرية يرجع في المقام الأول إلى امتلاك القاهرة لعدة طرق برية ساعدها على مجئ الكثير من التجار حاملين معهم شتى أنواع البضائع الجيدة. كذلك كشفت الدراسة عن السياسة التجارية الاحتكارية التي اتبعها السلطان الأشرف برسباي تجاه بعض السلع، والتى ترتب عليها شل حركة التجارة في مصر.

وأثبتت الدراسة أيضاً أن منطقة المطرية كانت تعد من المزارات المقدسة في مصر، لأن العائلة المقدسة توقفت عندها أثناء رحلة هروبها إلى مصر، ولذلك تعد من الأماكن المقدسة التي يقوم بزيارتها الحجاج الأوروبيون.

وأخيرا أبرزت الدراسة من ناحية أخرى أن المجتمع المصري تكون كما وصفه بيلوتي الكريتي من ثلاث طبقات سكان مصر، طبقة الرقيق المماليك، وطبقة الأعراب أو البدو.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية المطبوعة:

ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس المصري ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)

- بدائع الزهور في وقائع الدهور المعروف بتاريخ مصر، طبعة محمد مصطفى ١٩٨٢ – ١٩٨٤م .

ابن بطوطة (عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى ثم الطنجى ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م)

– تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، باريس ١٨٨٠م)

ابن البيطار

– الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، القاهرة ١٩٨٣م .

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)

– منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ٤ أجزاء، نشرة وليم بوبر، كاليفورنيا ١٩٣٠م.

– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، طبعة دار الكتب المصرية حتى جـ١٢، ١٣، تحقيق محمد فهيم شلتوت، جـ١٤ تحقيق جمال محمد محرز، فهيم شلتوت، القاهرة ١٩٧١م، جـ١٥، تحقيق إبراهيم طرخان ١٩٧١م .

– المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق محمد محمد أمين ونبيل عبد العزيز، القاهرة ١٩٨٥ – ١٩٩٤م . .

ابن حجر (الحافظ بن حجر العسقلانى ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)

– أنباء الغمر بأنباء العمر، الأجزاء من ١–٣ تحقيقق حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٩ –١٩٧٢ – ١٩٩٤م .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)

– العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، القاهرة ١٩٧١م.

ابن دقماق (صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)

– الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القاهرة ١٩٨٣م.

ابن الزيات (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن نصر الدين الأنصارى ت ٨٤٤هـ/١٤٤٠م)

– الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى، المطبعة الأميرية ١٩٠٧م .

ابن شاهين (خليل بن شاهين الظاهرى ت ٨٧٢هـ/١٤٦٨م)

– زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس ١٨٩٤م.

ابن الصيرفى (على بن داود بن ابراهيم ت ٩٠٠هـ/١٤٩٥م)

– نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، الأجزاء من ١–٣ تحقيق حسن حبشى، دار الكتب المصرية، ١٩٧٤م.

ابن عبد الظاهر (محيى الدين بن عبد الظاهر ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م)

– تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة ١٩٦١م.

ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)

– تاريخ الدولة والملوك، أربع مجلدات، نشرة قسطنطين زريق، ونجلاء عز الدين، بيروت ١٩٣٩م.

ابن القيم الجوزية

– الفروسية، نشرة السيد عزت العطار، القاهرة ١٩٤٢م .

ابن الوردى (زين الدين عمر ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩)

– تاريخ ابن الوردى، القاهرة ١٩٦٩م .

بنيامين التطيلى (الرحالة الرابى بنيامين بن يونة التطيلى)

– رحلة بنيامين (٥٦١ – ٥٦٩هـ / ١١٦٥ – ١١٧٣م) ترجمة وتعليق عزرا حداد بغداد ١٩٤٥م.

جان ليون الافريقى (الحسن بن محمد الوزان القرن ١٠هـ/١٦م)

– وصف افريقيا ترجمة عبد الرحمن حميدة، مراجعة على عبد الواحد، الرياض ١٩٧٩م.

حسن الرماح

– الفروسية والمناصب الحربية، تحقيق عيد ضيف العبادى، بغداد ١٩٨٤م.

الدميرى

– حياة الحيوان الكبرى، ط (٢)، القاهرة ١٨٩٥م.

الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)

– دولة الإسلام، طبعة حيدر آباد، ١٣٣٧هـ .

زتيرشتين

– تاريخ سلاطين المماليك، ليدن ١٩١٩م .

السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر عثمان السخاوى، ت ٩٠٣هـ/١٤٩٧م) .

– الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزء، القاهرة، ١٣٥٣هـ.

– التبر المسبوك في ذيل السلوك، المطبعة الأميرية ١٨٩٦م.

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)

– حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزءان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٩٨م.

طافور، بيرو

– رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة وتقديم حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٨م

العبدرى

– الرحلة المغربية، نشر محمد الفاسى، الرباط، ١٩٦٨م.

العمرى (شهاب الدين بن فضل الله العمرى، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩)

– التعريف بالمصطلح الشريف، بيروت ١٩٨٨م .

العينى (بدر الدين محمود العينى مولده ٨٥٥هـ/١٤٥١م)

– السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى، تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٧م.

القلقشندى (شهاب الدين أحمد بن على القلقشندى، ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م)

– صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزاء، طبعة دار الكتاب، القاهرة ١٩١٣م .

– ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، القاهرة ١٩٠٦م .

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على المقريزى ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)

– إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشرة محمد مصطفى زيادة وجمال الشيال، القاهرة ١٩٤٠م.

– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار، ٤ أجزاء مطبعة النيل ١٣٢٥هـ، مطبعة لبنان ١٩٥٩م .

– السلوك لمعرفة دول الملوك، نشرة محمد مصطفى، جـ١، جـ٢، في ستة أقسام ونشرة سعيد عاشور، جـ٣، جـ٤، في ستة أقسام ونشرة سعيد عاشور، جـ٣، ٤ في ستة أقسام آخرها عن دار الكتب المصرية، سنة ١٩٧٠م، ١٩٧٢، ١٩٧٣م .

– الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥م .

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) .

– نهاية الأرب في فنون الأدب (طبع منه ثلاثون جزءاً والباقى ما زال محفوظاً بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة .

النويرى السكندرى

– الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الاسكندرية، تحقيق عزيز سوريال عطية، ١٩٧٣م.

ثانياً: المراجع العربية:

ابراهيم على طرخان

– مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، طبعة القاهرة ١٩٦٠م.

أحمد دراج

– تاريخ العلاقات بين المماليك والفرنج في القرن ١٥م، دار الفكر العربى، ١٩٩٠م .

أحمد عبد الرازق

– الجيش المصري في العصر المملوكى، القاهرة ١٩٩٨م.

– المرأة في مصر المملوكية، القاهرة ١٩٧٥م.

– تاريخ وآثار مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٩٣م.

– تاريخ وآثار مصر الإسلامية فى العصرين الأيوبى والمملوكى، القاهرة ٢٠٠٧م .

بدرى محمد فهد

– العامة في بغداد في القرن الرابع الهجرى، بغداد ١٩٦٧م.

حكيم أمين عبد السيد

– قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة ١٩٦٧م.

سعيد عبد الفتاح عاشور

– قبرص والحروب الصليبية، القاهرة ١٩٥٧م .

– المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٦٥م.

– الحركة الصليبية، جزءان، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٣م.

– العصر المماليكى في مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥م .

سماح السلاوى

- الأوضاع الحضارية في مصر والشام في العصر المملوكي من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، كلية البنات، ٢٠٠٨م.

سمير على الخادم

- الشرق الإسلامي والغرب المسيحى، بيروت ١٩٨٩م.

سند أحمد عبد الفتاح

- الأسماك ومصايدها في مصر المملوكية ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد الثالث والعشرون، ٢٠٠٨م.
- الطيور الداجنة في مصر المملوكية، ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، عدد ٦ (القاهرة ٢٠٠٨م).

السيد الباز العرينى

- المماليك، بيروت ١٩٦٧ .

الشاطر بصيلى

- الكارمية، مقال في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ١٣، ١٩٦٧م.

صبحى لبيب

- التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد (٤) ١٩٤٩م.

عطية القوصى

- وثائق الجنيزة وأهميتها في دراسة تاريخ مصر الإسلامية، مجلة جامعة القاهرة، العدد الخامس، ١٩٧٤م.
- أضواء جديدة على تجارة الكارم والكارمية، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد (٢٢)، ١٩٧٥م.

على السيد علي

- القاهرة في عيون الرحالة الأوروبيين، مجلة فكر، العدد ١٣، أكتوبر ١٩٨٨م.

فريد شافعى

– العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، الرياض، ١٩٨٢م.

قاسم عبده قاسم

– النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط(١) القاهرة ١٩٧٨م .

– أهل الذمة في مصر العصور الوسطى دراسة وثائقية، ط(٢)، القاهرة ١٩٧٩م.

كمال سامح

– العمارة الإسلامية في مصر، القاهرة ١٩٧٠م.

ماير (ل. م.)

– الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتى مراجعة وتقديم عبد الرحمن فهمى، القاهرة ١٩٧٢م .

مجدى عبد الرشيد

– القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك ٦٤٨ – ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م، القاهرة ١٩٩٩م.

محاسن محمد الوقاد

– الطبقات الشعبية في مصر المملوكية، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ١٥٢، القاهرة ١٩٩٩م.

– صورة المجتمع المصرى زمن سلاطين المماليك فى ضوء كتاب المدخل لابن الحاج ٦٤٨ – ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م، مجلة المؤرخ المصرى، العدد (٣٤)، يناير ٢٠٠٩م .

محمد أنيس

– الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤ – ١٩١٤م، القاهرة ١٩٧٧م.

محمد حمدى المناوى

– نهر النيل في المكتبة العربية، القاهرة ١٩٦٦م.

محمد حمزة اسماعيل الحداد

– سلسلة الجبانات فى العمارة الإسلامية قرافة القاهرة، من الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر المملوكى، القاهرة ٢٠٠٦م .

محمد رمزى

– القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٤م

محمد عبد الغنى الأشقر

– تجارة التوابل في مصر في العصر المملوكى، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ١٣٧، ١٩٩٩م.

محمود رزق سليم

– عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، القاهرة ١٩٤٧م، جـ١، ص ٢٤٥ .

محمود نديم

– الفن الحربى للجيش المصري في العصر المملوكي البحرى، القاهرة ١٩٨٣م .

محمد مؤنس عوض

– الأسماك في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، دراسة في التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد الثانى عشر، مارس ٢٠٠٣م .

ناجلا محمد عبد النبى

– مصر والبندقية العلاقات السياسية والاقتصادية في عصر المماليك، ط أولى، دار عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠١م.

نقولا زيادة

– رواد الشرق العربى، مجلة المقتطف، القاهرة ١٩٤٣م.

ثالثاً: المصادر والمراجع الأجنبية :

– Abou Seif, D. B., *Islamic Architecture in Cairo, An Introduction* (Cairo 1989).

– Adler, E. N., *Jewish Travelers* (London 1930).

– Ahmad Darrag, L'Egypte sous Le régne de Barsbay 825-841 / 1422 – 1438 (Damas 1961).

– Ayalon, D., "L'esclavage mamlouk," *Oriental Notes and Studies*, No. 1 (Jerusalem, 1951).

- Studies in the structur of Mamluk Army, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, I-III (1954).

– Baumgarten, M., *The Travel of Martin Baumgarten Throught Egypt, Syria, Palestine* (London n.d.).

– Bond, C.E., *Biology of Fishes* (Philadelphia 1979).

– Carré, Jean Marie, *Voyageurs et écrivains francais en Egypte* (Le Caire 1932).

- Clerget, Marcel, *Le Caire*, 2 vols. (Le Caire 1934).
- Dopp, P. H., *L'Egypte au commencement du quinzième siècle* (Le Caire 1950).
- Dozy, R., *Supplément aux dictionnires Arabes*, I-II, (Leiden 1881).
- *Encyclopaedia of Islam,* vol. 6 (Leiden 1987), sv. *Nawruz*.
- Fabri, F., *Le voyage en Egypte 1483*, trad. du Latin Presenté et annote par J. Masson, 2 toms (Le Caire 1975).
- Frescobaldi, Gucci, Sigoli, *A Visit to the Holy Places*, trans. by Theophilus Bellorini (Jerusalem 1948).
- Ghistele, Joos von, *Voyage en Egypte (1842-1483)*, trans. by, Bauwens Preaux (Bruxelles 1975).
- Harff, A.V., *The Pilgrimage of Arnold von Harff,* trans. by Letts Malcolm (London 1946).
- Ibrahim Ragab Fahmy, *Medicinal Plants and their vegetal Drops* (Cairo 1970).
- Lane-Poole, *History of Egypt in the Middle Ages* (London 1901).
- Langnon, B., *Le saint voyage de Jerusalem de seigner de Anglour* (Paris 1878).
- Larrivaz, F., *Le Saints Peregrinations de Bernad de Breydenpah 1483* (Le Caire 1904).
- Ludolph von Suchem, *Description of the Holy Land and the Way Thither*, translated by Aubrey Stweart (London 1895).
- Mandeville, Sir John, *The Travels or Sir John Mandeville* (New York 1895).
- Nelson, J. S., *Fishes of the World* (New York 1970).
- Nicolo of Poggibosi, *A Voyage Beyond the Seas (1346 – 1350)*, (Jerusalem 1945).

- Norman, J. R., *A History of Fishes* (London 1958).
- Poliak, A. N., *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon (1250 – 1900)* (London 1939).
- Prescott, G., *Once to Sinia, the Further Pilgrimage of Felix Fabri* (London 1957).
- Schefer, C. H., *Le voyage de Jean Thenaud et Dominico Trevisani* (Paris 1864).
- Souriano, F., *Treaties on the Holy Land*, trans. by Fr. Theophilus Bellorini (Jerusalem 1948).
- Wright, T., *EarlyTravelers in Palestine* (London 1948).